عيون لا تعرف الدمع

عيون لا تعرف الدمع

رواية

محمد خضيري

الطبعة الأولى : ٢٠١٩

رقم الإيداع : ٢١٨١٣ / ٢٠١٩

ISBN 978 -977-6739 -04- 8

١٦٠ ص ، ٢٠ سم

الناشر: الحسناء للنشر والتوزيع

{جميع الحقوق محفوظة ©}

التوزيع لجميع أنحاء العالم

إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج ٠ م ٠ ع

المراجعة اللغوية: نهال جمال

غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

عيون لا تعرف الدمع

رواية

محمد خضيري

إهداء

إلى الذين جعلوا لحياتي معنى، وأضافوا إليها البسمة والأمل،

إلى زوجتي وأبنائي..

وإلى روح أبي وأمي، أسكنهما الله فسيح جناته.

محمد خضيري

الزمن بطيء جدًّا لمن ينتظر..
سريع جدًّا لمن يخشى..
طويل جدًّا لمن يتألم..
قصير جدًّا لمن يحتفل..
لكنه الأبدية لمن يحب.

الدنيا مسرح كبير، وكل الرجال والنساء ما هم إلا ممثلون على هذا المسرح.

وليم شكسبير

❊ ❊ ❊

مقدمة

الصعيد جسد مصر السرمدي، الأرض التي تنبت الخير لتطعم الجميع، الشاهد على الكثير من الأحداث التي مرت بها، والقاص لها، فما أجمل الصعيد ببراءته، وصفاء سمائه، ونيله الرقراق، شريان الحياة المتدفق بالحب والأمل والخير ليروي ظمأ العطشى، ويجعل الأرض تعود للحياة ، مليء بالذكريات المفرحة والمحزنة، فهو كرياح النسيم في هدوئه وسماحة وكرم أهله.

أرض النخوة والرجولة التي لا تنطفئ أبدًا، وكرياح صرصر عاتية في غضبه وغضب أهله، كموج بحر يضرب فيكسر أقوى الصخور، كليل غابت نجومه وقمره فأصبح مسودًّا حالكًا لا ترى فيه أحد، وتشتعل نيران الغضب فيرتفع لهيبها حتى عنان السماء، فتبدو قوة أهله التي لا تتشدخ أبدًا إلا إذا آب الحق إليهم.

فأهل الصعيد لا يوقَظ غضبهم إلا دفاعًا عن حق أُغتصب، ولا يسكنون إلا بعودته، حتى لو استمر ذلك سنين طوال، فلا تنظر إلى الصعيد على أنه أرض الثأر والجريمة،

بل انظر إليه على أنه أرض الحضارة والتاريخ الذي أُهمل كثيرًا وغابت عنه شموس التطور، فأخرج من أرضه شموس أضاءت في الأفق، تشهد على أصالته أهلة وإبداعاتهم في المجالات كافة.

محمد خضيري

الفصل الأول

الشمس تميل إلى الغروب بلونها الأحمر الدامي، تشعرك بجمال الطبيعة، وتشاهد السماء قد أصابها احمرارًا عندما عانقت أشعتها الباهتة الأرض والأشجار، كأنها تودعها، وذهبت الشمس بضوئها، وتحولت إلى كرة برتقالية الشكل جاثية فوق قمم الجبال، ترسل لنا شعاعها الأخير، حتى غاصت خلفها كغوص حجر في محيط خضم، وبسط الليل أذرع ظلامه ليغطي المكان، ورُفع الأذان ليعلن وقت المغرب، فذهب الجميع إلى أداء الصلاة في مسجد الكفر، فأقام الإمام الصلاة واصطف الناس جميعًا بجوار بعضهم لا فرق بين صغير أو كبير، ولا غني ولا فقير، الكل في هذا الموقف سواسية، مَن في الصف الأول كمَن في الصف الأخير، الكل وضع جبهته على الأرض فتلاشت الفروق والاختلافات، وبعد أداء الصلاة خرج الناس من المسجد تباعًا، ووقف البعض أمام المسجد ينتظرون إخوانهم الآخرين ليخرجوا، وأخذوا يتبادلون التحية والسلام على بعضهم في غمرة من السعادة والألفة التي تشاهدها في أعين الصغار والكبار في الكفر، وخرج الجميع من المسجد، وبعد انتهاء الصلاة اندفع الجميع إلى المنازل لتناول وجبة العشاء، وأخذوا يسألون بعضهم البعض أن يتناولوا الطعام معًا، وهذه عادة في الصعيد، وما زالت قائمة حتى الآن، فمنهم من يقبل، ومنهم من يعتذر ليذهب ليتناول العشاء مع أهل بيته، وبعد الانتهاء من العَشاء خرج الجميع وتوجهوا إلى دار الجد، شباب

وأطفال داخل الدوار، وبدأنا بالجلوس خارج الدار على المصطبة، وتجمع الأطفال والشباب عند بيت الجد ينتظرون مجيأه؛ ليقص علينا الحكايات الجميلة التي يقصها علينا في الغَسَق، وجلسنا وأشعلنا النيران حيث ليل الشتاء الطويل والبرد القارس، فالطريقة الوحيدة لدى أهل الكفر للقضاء على برودة الشتاء هي إشعال النيران، والتففنا حول النيران -كالتفاف الأطفال حول أمهم- لكي تغطينا بدفئها، وجلسنا جميعًا حتى حضر الجد بجلبابه الأسود الجميل وعمامته البيضاء التي تكسوه هيبة وإجلال، وبلحيته الصغيرة البيضاء، ويمسك بيده قدحًا من الشاي الساخن، وباليد الأخرى مسبحته الطويلة، فتقدم وجلس فوق المصطبة، وقلنا بصوت واحد وبلهفة: "يا جدّ، قص لنا قصة من قصصك الجميلة"، ابتسم الجد ابتسامة ترمي بالأمل والطيبة وبراءة الناس وحضور الألفة والمحبة بين أهل الكفر صغيرهم وكبيرهم، وقوة الترابط بين الأهل والأقارب، فنظر الجد يمينًا ويسارًا قائلًا: "هل الجميع قد حضر؟" أجبنا بصوت واحد: "نعم يا جد الجميع موجود"، نقولها بلهفة لكي يبدأ الجد في سرد قصصه الجميلة التي اعتدنا عليها، والتي تقتل الفراغ الذي يصيبنا؛ حيث إن الصعيد بعد صلاة العشاء فارغ تمامًا، وليس هناك ما يشغل تفكير الناس، ولذلك تجد معدل الجريمة والقتل في الصعيد مرتفع؛ لأن الناس تبدأ في الليل التفكير في العم والأخ والجد والأب الذي قُتل، أو ابن العائلة الذي قُتل منذ زمن طويل، وتأخذ تلك الأفكار، نتيجة للفراغ، تتجدد مرة أخرى.

فقال الجد: "يا أولاد ويا شباب، ما أجمل حب الناس للناس! هو مفتاح الحياة، عندما تحبك الناس ستجد الحياة لها طعم

مختلف ومذاق يروق لك، ولكن إذا أبغضك الناس ترى الحياة مثل هذا الشاي، ومثل الليل بدون قمر أو نجوم، ظلام دامس لا ترى فيه أحد، ولكن لا يخدعنك مظهر الناس، ولكن غُص في أعماقهم وفي جوهرهم، فكثير من الناس يبدو على مظهرهم الطيبة والشرف وجوهرهم الشر والفساد، فهؤلاء يدسون لك السم في العسل، فمن يبغضك على خير اعلم أن جوهره فاسد، ومن يقومك عن شر اعلم أن جوهره طيب، فعاملوا الناس بالحب والاحترام، ولا تسمعوا لأحد يقول لكم إن الطيبة ضعف والحب خيبة، لا يا أولاد، الطيبة جميلة، بالحب والاحترام تكسب تقدير الناس ومودتهم، وليس بالخوف والقهر والظلم، قد ترى الناس تهابك؛ لأنك قوي ومفترٍ وظالم، ولكن عندما تصيبك مصيبة لا أحد يقف بجوارك، ويقولون عليك أبغض الألفاظ وأحقرها، وتجد نفسك وحيدًا وضعيفًا على الرغم من قوتك وجبروتك، ولكن إذا اكتسبت حب الناس واحترامهم وأتت إليك المصائب ترفرف، أو حلت بك ضائقة، تجد الجميع ملتفًا حولك، الكل يريد أن يقدم لك أي مساعدة، فتصبح قويًّا بقوة الناس، فهناك فرق بين الخوف والاحترام يا أولاد، فاعلموا جميعًا أن الخوف لا يولّد الاحترام بل يولد الكره، ولكن الحب يولِّد القوة والحب، فقد تخاف مني عندما تراني، وبعد أن أدير ظهري لك تسبني وتلعنني، ولكن الاحترام يكون حتى في غيابي، حتى لو ذُكِر اسمي في جلسة تثني عليَّ وتشكرني، فهذا هو الاحترام ، فكل شيء زائل، المال والسلطان والقوة، ما يبقى يا أبنائي هو الحب والطيبة والذكرى الطيبة، تفنى الأجساد وتبقى ذكرى الإنسان خلفه، سواء طيبة أو سيئة، ولكن تعامل الناس مع الاثنين يختلف،

فأصحاب الذكريات الطيبة تجد لهم حبًّا واحترامًا ودعوات من الناس حتى بعد موتهم، أما الآخرون فتجد لهم كرهًا واشمئزازًا عند ذكرهم، فاحرصوا دائمًا على تحلي ذكراكم بالطيبة والحب، فهو الطريق الأطول، لا بالظلم والقهر، فهو الأقصر، مهما طال، فالشر مغلوب مهما طال عمره، والخير منتصر مهما ضعف صاحبه.

فهيا بنا نغوص في بحر ذكرياتنا لنأتي بقصة من الماضي، قصة بلدة صغيرة تسمى كفر سمنهور، نسبة إلى الشيخ السمنهوري، هذا الرجل الطيب الذي غَنِمَ حب الناس واحترامهم وتقديرهم، وقد افتقد الناس الشيخ السمنهوري بعد وفاته، وظن الناس أن هذا الرجل لن يُكرر، ولكن الأقدار لها تدابير أخرى، فأحد أحفاد الشيخ السمنهوري كان صورة طبق الأصل من جده الأكبر، فسار على نهج جده، واستكمل مسيرته، وقد يكون أفضل، وهو الشيخ أحمد السمنهوري، وإلى اليوم نقص حكايته، وقد غُير اسم الكفر وسُمي على اسمه تخليدًا لذكراه الطيبة، فالشيخ أحمد رجل طيب يحب أهل البلد كلهم ويساعدهم دون النظر إلى طبقاتهم الاجتماعية، فالناس عنده سواسية، فكان دائمًا يقول ويذكرنا في خطبته بأن الناس سواسية كأسنان المشط .

حيث تولى مهمة صعبة، فهو العمدة الذي يرعى مصالحهم، ولكن كان يعامل الناس ليس بصفته عمدة أو صاحب أرض تعمل الناس عنده، ولكن يعاملهم كأنهم أهله، وكأن الأرض التي يعملون فيها ملك لهم، فدائمًا ما كان يذهب إلى الحقل وقت العصر، حيث مالت الشمس وانحنت نحو المغيب وهدأت حرارتها، فيجمع الناس ويجلس معهم صغارًا وكبارًا، يتحدث إليهم

ويتحدثون إليه، ويسمع منهم شكواهم وطلباتهم بكل حب وود، وكان يقول لهم: "يا إخواني، أنتم أهلي، وأنتم لا تعملون عندي، بل الأرض أرضكم، مروية بعرقكم، عِدُّوني أخًا لكم يراعيكم ويرعى مصالحكم"، فيبتسم الناس ويقولون: :ما أسعد الكفر بشخص مثلك يا شيخ أحمد، نعم الرجال أنت"، فهو إمامهم وخطيبهم في الصلاة، وكان معطاءً لا يبخل على أحد، يعطي الجميع بدون مقابل، يشارك أهل الكفر أفراحهم وأحزانهم، ولا يترك صاحب مشكلة إلا أن تُحَل، فكان نهر خير يغترف الجميع منه، فيروي ظمأ العطشى من خيره وعدله، فقدَّره الناس وأحبوه حبًّا شديدًا.

ولكن بجانب الخير لا بد أن تجد هناك الشر كامن، والحقد في نفوس بعض الناس، وتكون الطامة الكبرى عندما تجد الحقد والكره من أقرب الناس إليك، من الأهل، والكثير يريدون الخلاص منك؛ لأنك أنت الأفضل والأحسن في أعين الناس، فكان للشيخ أحمد شقيق مثل الثعبان ينفث سمه في كل مكان، يريد التخلص من الشيخ أحمد حتى يحصل على مكانه ويصبح هو صاحب النفوذ والأرض، وأهل الكفر جميعًا يدركون نوايا علَّام، ويقولون فيما بينهم: "سبحان الله، أيعقل أن علامًا أخو الشيخ أحمد؟ شتان بين الاثنين"، ومن يرى أفعال علام لا يصدق أبدًا أنه قريب للشيخ أحمد لا من قريب أو من بعيد، أمعقول أن البطن التي حملت الشيخ أحمد قد حملت علام؟! ويردون على أنفسهم ويقولون" :إن الأصابع يحملها كف واحد ولكن غير متساوية"،

وعُرف علام بالشدة والقسوة على الناس، ويرى نفسه أنه أفضل من الناس، وأن جميع الناس ما هم إلا سوقة يعملون عند أبيه، ولكن علامًا كان خائفًا، وتخوفه ليس من أحمد، بل يقول لنفسه بأن أحمد لا يسبب لي مشكلة، ولكن المشكلة الكبرى مريم زوجة أحمد، هي حقًّا المشكلة الكبرى. وكان الناس كلهم يخشون مريم، ويخافون منها خوفاً شديدًا، والناس تعتزلها؛ لأنها شديدة الطبع، قاسية في التعامل، والناس يقولون عنها إنها شيطان في صورة امرأة، وعلام بكل جبروته وقسوته كان لا يستطيع أن يقف بوجه مريم، وكانت دائمًا تعترض على تعامل الشيخ أحمد مع الناس بالطيبة، كانت تقول دائمًا: "يا عمدة، إن تعاملك مع الناس بالطيبة واللين الزيادة يجعل الناس تدجل وتدوس علينا يا عمدة".

العمدة (أحمد) نظر إليها مبتسمًا وحرك رأسه يمينًا ويسارًا وهو يقول لها بصوته الودود الذي تنبع منه الطيبة والحب: "يا حاجة، الناس قد طحنهم الفقر في رُحاه، يحتاجون من يساعدهم ويخفف عنهم، سنكون نحن والفقر والمرض عليهم؟! أهل الكفر يريدون يدًا تخفف عنهم الهم، وليس يدًا تزيد من تلك الآلام، ألم تري كيف يعيش أهل الكفر؟ معظمهم يفترش الأرض ويلتحف السماء، وانظري إلى قول الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم ﷺ، (فتصلي مريم على الرسول ﷺ)، بسم الله الرحمن الرحيم ،

﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ ﴾[١]

صدق الله العظيم.

مريم: "ونعم بالله، ولكن الناس بطبعها تحب الشدة يا عمدة، الكلاب عندما تُسمن تأكل أهلها، وعندما تجوع تعض من الجوع، لا بد أن تشدخ أنيابها، حتى عندما تشبع أو تجوع تسكت وترضى، ولا تستطيع أن تعض، بل ترضى بما نرميه لها".

العمدة متأملًا كلام مريم وتفكيرها ضاربًا على كفه قائلًا لها: "لا حول ولا قوة إلا بالله، أنت قاسية جدًّا، والناس باللين تكسبينهم، لا بالكرباج والقهر، قد يخافون يومًا أو سنة، ولكن عند أقرب فرصة لو استطاعوا أن يقتلوكِ لن يترددوا لحظة في تنفيذ ذلك؛ فكثرة الضغط تولد الانفجار".

مريم تنظر إلى الشيخ أحمد متعجبة وتقول له: "كن هكذا حتى يتمرد الناس عليك".

فيبتسم العمدة من كلام مريم وهو يقول لها: "يا مريم، أين حنية قلبك التي كانت تملأ جدران هذا المنزل؟ عندما أسمعك تقولين هذا أظن أنك لست مريم، ولكن أنت مريم، يا زوجتي الحبيبة، الشدة لا تفيد ولا تكسب شيئًا، ولكن الباقي هو الحب والعطاء،

---

١ آل عمران: ١٥٩

هما سر النجاح؛ فالرسول الكريم ﷺ يقول: **"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"**.

نظرت مريم إلى العمدة مبتسمه واستأذنت فخرجت، وصعدت الدَرَج ولاذت إلى أحد غرف المنزل، والعمدة أحمد ينظر إليها متأملًا ضاربًا الأرض بعصاه، وهو يقول: "مريم قلبها قاسٍ جدًّا، وبدأ يبدل ملابسه واستعد للخروج من الغرفة، والذهاب إلى الحقل؛ ليباشر أعمال الناس والعمال العاملين بالأرض، وكانت الشمس قد دنت من المغيب، وسار راجلًا، وهذه كانت عادته حتى يرى الناس، وكان يقول لنفسه: "إذا ذهبت راكبًا ربما يراني الناس متكبرًا عليهم، وإذا أراد أحد شيئًا مني لن يحلق بي، ولكن عندما أسير راجلًا أشعر بسعادة تغمرني، فهذا كان دائمًا تفكيره، كيفية إسعاد أهل الكفر بأي وسيلة من الوسائل، وكان يداعب الأطفال وهم يلعبون بالطريق، ويسلم على الصغير والكبير، والناس تبتسم وتصافحه بقلوب ملأتها الألفة والحب.

وكان للعمدة ابن اسمه وهدان، كان دائمًا يأخذه معه في كل مكان لكي يعلمه ويهيئه ليكون مكانه، ويكون العمدة القادم، ولكن هذا الوضع لم يعجب علامًا -أخو الحاج أحمد العمدة- لأن علامًا يحلم بالعمودية ويحاول الوصول إليها بأي وسيلة من الوسائل، حتى لو لجأ إلى قتل أي شخص يقف في طريق حلمه، وكان علام شخصية شريرة تحب المؤامرات والدسائس وتكوين العلاقات المريبة مع الخارجين عن القانون وقاطني الجبال، وهم من نسميهم المطاريد.

ولكن (وهدان) كان يحب المرح والجلوس على مقهى القرية واللعب مع أصحابه، كعادة الشباب في سنه، وما يتمناه وهدان السمنهوري

في كينونته هو أن يتزوج من الفتاة التي أُغرم بها عندما شاهدها وأسره جمالها، وكان يقول لنفسه: "كيف يحدث ذلك؟ وكيف أفاتح أبي في هذا الأمر؟ لا بد من تفكير عميق، وإذا اقتنع أبي فكيف الحال مع أمي؟" وازداد حبًّا وتعلقًا بتلك الفتاة، وأراد الوصول إليها والارتباط بها في أسرع وقت ممكن، ولكن جلس يقول: "كيف ذلك؟ وما الطريقة لكي أقنع أبي وأمي بالموافقة على زواجي من نجلاء؟" وأخذ التفكير منه أشواطًا كثيرة، وكأن رأسه شُل عن التفكير ووقف، والحيرة تدق أفكاره من كل حدب وصوب، وهو يقول نفس السؤال في كل مرة (كيف الوصول إلى نجلاء؟) وكانت نجلاء (بنت جارهم الحاج محمد الجزار) الفتاة التي أُغرم بها وهدان، فكانت ذات جمال فائق، ولكن وهدان لم يستطع أن يتحدث في هذا الأمر من قريب ولا من بعيد؛ لأن أمه وأبيه لن يوافقا في هذه الأوقات أبدًا؛ لأنه ما زال صغيرًا، وهناك مشوار أهم من ذلك، وهو الاستعداد ليكون العمدة في المستقبل، ولكن تأتي الأيام بما لا نحب، ويرمي الزمن على الطيبين ليأخذهم، يُصاب الحاج أحمد بمرض فيمكث في المنزل بلا حراك، فيعلم أهل الكفر بمرضه فيحضر الناس من أنحاء الكفر لزيارة الشيخ أحمد، حتى الأطفال قدموا لزيارته، وكانت تصيبه السعادة عند قدوم الأطفال والناس ويتحدث معهم، وكأن طيور المرض فارقت المنزل، فعلى الرغم من مرضه كان يداعب الناس ويضاحكهم ويداعب الأطفال، واستمر الوضع كثيرًا، وحضر الأطباء ليتابعوا حالته المرضية، فكان دائمًا يقول لهم: "إن طيور الموت قادمة، أوشكت على الوصول"، ويضحك معهم فيقولوا له: "يا عمدة، صحتك في تحسن، وإن شاء الله ستكون بخير"، فيرد على الطبيب ويقول له: "يا دكتور،

أتحسبني أخشى الموت؟ بل أحببت لقاء الحبيب"، فينظر الدكتور إليه قائلًا: "أعطاك الله العمر كله وزاد من إيمانك يا عمدة".

فينظر قائلًا وهو مبتسم: "يا دكتور، أنا أعلم أني لن أقوم من مرضي؛ لأني أشعر أن أجلي قاب قوسين أو أدنى مني، وأن الحمام على الرأس مرفرفًا". ينظر الطبيب إليه وهو يقول: "الأعمار بيد الله، ولا يعلم أحد منا من سيسبق الآخر، والآن أتركك لتستريح قليلًا"، فيقول للطبيب: "لو سمحت أرسل لي وهدان"، الطبيب: "تحت أمرك يا عمدة"، فيخرج الطبيب وتذهب إليه مريم ووهدان ويسألونه عن صحة العمدة، فيخبرهم أنه في تحسن، ويستمر على الأدوية المقررة له، وهو يطلب مقابلتكم بالداخل، فيدخلون عليه فيكلف وهدان وأمه برعاية مصالح الناس، وأن يعاملوا الناس بالحسنى.

ونظر إلى مريم وهو طريح على سريره وبأنفاس متقطعة، وكأن الكلام محشور في حلقة أبى الخروج، وكأنه في حشرجة الموت، وكأن ملائكة الموت ترفرف على رأسه، وهو لا يستطيع أن ينصب ظهره ليكلمهم وأعينه تحمل الكثير لها من الكلام، وقال لها:

"عاملي الناس بالحسنى يعاملوكِ بها، وأنت يا وهدان.." فينظر وهدان إلى أبيه مقتربًا منه، فيجلسه بجواره على سريره ويمسك يده وهو يقول له: "كن حذرًا، وحب الناس يجعلوك أقوى الناس بحبهم"، وكأن هذه الكلمات كانت وصيته الأخيرة لهم وهم لا يدركون ذلك، فينظر إليه وهدان وهو يحبس دموع عينه التي تشتعل حرقتها خلف جفونه قائلًا بحزن شديد على أبيه:

"لا تخف يا أبي واسترح ولا تتعب نفسك بالكلام، وإن شاء الله ستكون بخير وتراعي كل شيء بنفسك".

فنظر إليهم وقال لهم: "اتركوني أستريح قليلًا".
فقام وهدان بوضع الغطاء على أبيه وقبَّل جبينه ويده وأطفأ له أنوار الحجرة حتى يستطيع أن يستريح قليلًا.
خرج وهدان وأمه وتركوا الحاج أحمد ليستريح، وفي الصباح ذهبت مريم للاطمئنان على الحاج أحمد، فطرقت الباب طرقات خفيفة، ثم فتحت الباب فوجدته نائمًا كما تركوه لم يتحرك، فاقتربت منه ووضعت يدها عليه، فعرفت أنه قد فارق الحياة، فاضت روحه إلى خالقها، فأصابها ذهول كبير وحزن وارتعشت يدها ودمعت عيناها، وكأن صاعقة نزلت عليها، وانهارت قواها أمام موت الحاج أحمد، فجلست هنيهة لتتمالك نفسها، ومدت يديها فأزالت دموعها ووضعت الغطاء على الشيخ أحمد وتحركت بخطوات ثقيلة، وكأن أقدامها التصقت بالأرض، حتى اقتربت من باب الغرفة فوقفت بضع ثوانٍ وأغمضت عينيها وشدت على يديها لكي تتمالك وتتماسك، ثم فتحت الباب واتجهت إلى غرفة وهدان، فطرقت الباب طرقات سريعة، فقام وهدان منزعجًا وفتح الباب، فإذا بأمه أمامه وهي تقول له:
"قم وبدل ملابسك"، فينظر إليها وهدان باستغراب متسائلًا: "ماذا حدث في هذا الصباح الباكر؟" فردت عليه، وبصوت يملؤه الشجن وهذه ليست عادتها في الكلام، قائلة: "أبيك قد تُوفي".
فينظر إليها وهدان وقد أصابه الخبر كوقع السهام على الجنود في المعركة، ويجلس على جانب السرير ويضع رأسه بين يديه، وتنزل دموعه وهو يقول: "أبي، أبي".
مريم ترد بعينين زائغتين تريد أن تخفي دموعها، وتهرب بعينيها بعيدًا عن وهدان حتى لا يلاحظ دموعها قائلة: "يا ولدي هذه حال

الدنيا، أموات يودعون أمواتًا، وكلنا ذاهبون يا وهدان، والآن قم وتمالك، وبسرعة جهِّز نفسك للنزول؛ لأن الناس ستأتي ولا بد أن تكون في استقبالهم، وأُذيع الخبر في الكفر بأن الشيخ أحمد فارق الحياة، فهرع الناس جميعًا صغارًا وكبارًا ونساءً، وأنهار الدموع رسمت مجراها على الخدود وتعالت زفرات الصدور وأنينها من البكاء حرقة عليه، وجُهز الجثمان وحُمل على أكتاف الرجال في مشهد كبير، والجميع خرج ليودعه الوداع الأخير، فكل أهل الكفر، حتى الأطفال الصغار، ساروا خلفه، وكان وقت صلاة الظهر، فأقاموا عليه الصلاة ثم اتجهوا به إلى المقابر، وكان زحام شديد، فعلى الرغم من حرارة الجو لم يتكاسل أحد، والكل يسير بخطى هادئة، وتشاهد الغبار يتطاير من الأقدام، وكأن هناك خيولًا تعدوا في معركة، حتى وصل الجميع واستقر الجثمان في مثواه الأخير، فمكثوا قليلًا ثم عادوا والحزن يرفرف على الرؤوس، وأُقيم سُرادق العزاء، وذهب الجميع إلى دار العمدة لاستقبال العزاء، فكان الجميع يستقبل العزاء لا تدري من المُعزِّي ومن المُعزَّى، فحضر كثير من الناس إلى العزاء من الكفر والكفور المجاورة، وشخصيات مهمة قد حضرت، وانتهى العزاء وسيطر على وهدان الحزن وكبله الألم على رحيل أبيه، واقتحم اليأس مجالات حياته، ومرت الأيام والقرية حزينة والحزن مخيم عليها كلها، وفارقت البسمة مناخها، واستمر الوضع هكذا طويلًا والناس تنتظر من سيحل محله، الكل محتار والناس تتساءل هل الكفر سياتي بشخص مثل العمدة أحمد مرة أخرى؟ وتجيب الألسنة عن نفسها: ربما يأتي شخص مثله وربما لا، فكانت الحيرة والقلق قد سيطروا على العقول، وصار حديث القرية كلها

عـن العمـدة القـادم، وكيـف سـيعامل النـاس، وانحصر الأمر بين اثنين، علام ومريم، والسؤال: من سيكون العمدة؟ هذا ما يشغل النـاس، وقـد تجاهلـت النـاس أن هنـاك طرفًـا ثالثًـا يبحـث عـن العمودية ويريد اقتناصها، فقد رجع حلم العمودية يرفرف على رؤوس أولاد موسـى، فسـيد وابـن عمـه كمـال همـس في نفسـهم الحلم القديم، أن تعود العمودية إلى دارهم، وتعود العزة والهيبة إلى أولاد موسـى مـرة أخـرى، وبـدأ الاثنـان يتحـدثون باسـتطراد والأعين تترنح يمينًا ويسارًا.

سيد موسى بجلبابه الأسود وعمامته البيضاء وهو يطوح العصى بيده ويتكئ على كرسيه ويضع رجلًا على الأخرى متسائلًا:

"يا تـرى مـن العمـدة القـادم؟ وهـل يمكـن أن تعـود العموديـة إلى دارنا مرة أخرى والطريق الآن نافذ؟"

كمال علي يرد على سيد وبنبرات صوته الضعف: "إن ما تحلم به محال" فقال: "يا سيد، أولاد موسى وهنوا بعد التشتت، وأصبحنا نبحث عن المصلحة الشخصية وليس مصلحة العائلة، وأكيد أن العمدة القادم هو علام".

ينظر سيد موسى إلى كمال، وكأن عينيه يثور منها بركان تأججت نيرانـه، وملامـح الغضـب شـاهرة سـيوفها، وأصبـح وجهـه متجهمًـا قـائلًا:

"لماذا علام؟ ولماذا لا يكون واحد منا العمدة؟ أليس هناك رجل في الكفر إلا علام؟ كفاك من الكلام الخائب، أنتم دائمًا تحبون أن تعيشوا خاضعين لغيركم، تحبون أن تكونوا مقادين وليس قادة، تعلمتم أن العيش داخل الجدران أمان، بل هو الجبن بعينه، لماذا لا تخرجون إلى الطريق وتحلمون بصعود الجبال؟ تريدون العيش

بين الجحور كالجرذان، تصطادكم أصغر القطط، تلك هي معيشة العبيد التي ارتضيتموها، ولكن عندي أملًا سأسعى دائمًا خلفه بكم أو بغيركم وبأي طريقة تكون".

كمال علي ينظر إلى كلام سيد وحدته وتعبيره، فأراد أن يُهدِّأ من روعه قائلًا: "هدِّأ من روعك وغضبك، نحن نتمنى أن تعود العمودية إلينا مرة أخرى، وغدًا كل شيء سيظهر ونعرف من العمدة".

سيد موسى بعد أن هدأ نظر إلى الحاضرين ونظر إلى كمال وهو ضارب على رجله قائلًا:

"أنت تعرف أن علامًا يستحيل أن يكون العمدة؛ لأن مريم لن تجعله يحظى بذلك ويحقق مراده أبدًا، وأكيد وبأي طريقة ستجعل وهدان العمدة، ولكن هذا مستحيل؛ لأن الكفر سيكون بين نارين، شر علام وخيبة وهدان، والاثنان مثل بعضهما علام بحقده وشره سيحرق الكفر، ووهدان ما زال صغيرًا وسيتسبب في تسيب الكفر، وأدعو الله أن يسترها على الأيام القادمة، وهذه فرصتنا نحن -أولاد موسى- لكي نسترد العمودية، ولكن هناك شيئًا مهمًّا جدًّا هو الخطر بعينه، مريم وما يمكن أن تفعله مريم، فلا بد من التدبير والتخطيط لذلك، وكل شيء سيأتي من تلقاء نفسه، وما أريده سوف أحظى به".

وعلى الرغم من كل هذه التدابير والأحداث والخطط القائمة في الكفر، ما زال وهدان معتكفًا بالبيت حزين على فراق أبيه، واسدل عليه الحزن ستائره وصار لا يخرج أبدًا من البيت، وكبرت لحيته وظهر عليه الحزن، فوصلت أخبار الكفر إلى مريم، والخطط التي تُرسم والتدابير التي تُدبر، الكل يريد اقتناص العمودية، فلم

يعجبها هذا الأمر وقامت وبخطى سريعة إلى غرفة وهدان وطرقت الباب طرقات عنيفة تدل على الغضب، فقام وفتح الباب، فإذا بأمه تقف على الباب.

فيقول بصوت كله شجن:

"تفضلي يا أمي"، ويدير ظهره ويتحرك خطوات نحو الكرسي فيجلس عليه، وتقترب منه أمه وهي تنظر إليها بنظراتها القوية وتقول له:

"ما بك يا وهدان؟ إلى متى ستظل على هذا الحال؟ اسمع، أبوك ليس أول من رحل ولا آخر من سيرحل، يا ولدي ميت يودع ميت وجيل يسلم جيل، والكل في الكفر يريد أن يحل محل أبيك وهذا لا يكون أبدًا".

وهدان ينظر إلى الأرض في تمايل قائلًا: "وماذا أفعل يا أمي؟ اتركيني في مصيبتي".

تقترب مريم منه وتمسكه بيديها وتهزه وتدفعه وهي تقول له: "إن مصيبتي في أبيك وحزني عليه أكبر بكثير من حزنك، ولكن يا ولدي ليس باليد حيلة، وأنت الآن مكان أبيك، أنت العمدة، اخرج لتراعي مصالحك ومصالح الناس، أنت لم تزل صغيرًا يا وهدان، لقد بلغت العشرين عامًا، ومن الآن وصاعدًا أنت العمدة".

ينظر وهدان إلى والدته باستغراب وتعجب، أنا العمدة!

"كيف ذلك وعمي علام من المفترض أن يكون هو العمدة وليس أنا؟"

مريم ترد بعنف قابضة على يديها وبنبرات صوتها الحادة على وهدان:

"عمك علام لن يكون العمدة، أنا التي أقول من يكون العمدة، وأنت العمدة يا وهدان واترك موضوع علام علي، واخرج فرج عن نفسك، كلنا سنموت يا ولدي"، وتركته وخرجت.
فأخذ يتجول في الغرفة يمينًا ويسارًا واضعًا يديه على رأسه تارة، وضاربًا يديه على بعضها تارة أخرى، مفكرًا بكلام أمه مرددًا: "أنا العمدة؟ أيعقل هذا؟ أنا لا أعرف ماذا تريد أمي وما دامت أصرت على شيء فلا بد من تنفيذه"، وفي الصباح ارتدى جلبابه وتناول الفطار مع والدته ثم خرج وسار إلى الأرض ليرعى مصالحه، فشاهده الناس وبدأ يداعب الأطفال ويسلم على الجميع ووجد الناس يعملون في الأرض، وكانت الشمس لطيفة لم يشتد حرها، وكان هناك هواء عليل يساعد على عمل الحقل الشاق، ونظر إلى الفلاحين في الأرض، فقال لهم مشجعًا إياهم:
"يا رجالة شدوا حيلكم، الأرض أرضكم مروية بعرقكم".
نفس كلمات أبيه، وتركهم وسار راجلًا يضرب الحصى بعصاه الصغيرة، فهمس العمال لبعضهم البعض وهم يعملون في الأرض: "نفس أبيه الشيخ أحمد، ولكن هذا الموضوع لم يرض علام؛ لأنه كان يخطط لأن يكون العمدة وكبير الكفر، فبدأ ينفث سمه ويهيج الناس على وهدان، وأنه صغير السن ولا يدري شيئًا في حل مشكلات الناس، فأراد علام أن ينتقم من وهدان ويهز صورته أمام الناس ويشكك في قدراته على تلك المسؤولية.
فدائمًا أيدي الشر القوية تضرب في الخفاء، ولكن أيدي الخير هي الغالبة في النهاية حتى لو كانت ضعيفة، فالشر مهما قويَ فهو ضعيف، والخير مهما ضعف فهو قوي، فإذا كان الشر حوت فالخير هو السنارة التي تصطاد الحوت.

واستمر وهدان يباشر الناس في الحقل حتى غابت الشمس وهب الليل بظلامه، فقرر الذهاب إلى البيت، وأثناء سيره شعر بنسيم الحب يهز أوراق قلبه ويحرك معه أشرعة قلبه المبحر في نهر الشوق، فشاهد الحب الدفين في قلبه، رأى نجلاء تقف أمام الدار قلقة حيرانة وعيناها تترنح يمينًا ويسارًا على الطريق والوقت متأخر، فاقترب منها ورجف قلبه وتحجرت نظراته، وطفق يتأمل صامتًا في روعة جمالها، ثم صعد يتأمل عينيها التي تنطق بالحب والصدق، وهمست بصوت حنون: "وهدان.. آسفة، حضرة العمدة..."، فيفيق من سكرة جمالها قائلًا: "نعم هل هناك شيء؟ ولماذا أنت واقفة أمام الدار والوقت متأخر؟ هل تريدين شيئًا أستطيع أن أفعله أو أقدمه إليك؟".

ترد نجلاء ردّاً عابرًا:

"لا شكرًا ليس هناك شيء"، ولكن يبدو عليها التوتر والقلق وكأنها منتظرة أحدًا، فينظر وهدان إلى قلقها قائلًا:

"ما بك؟ أراكِ قلقة جدًّا، أهناك مكروه أصاب أحدًا؟ أخبريني عسى أن أستطيع تقديم أي مساعدة".

ترد وهي تنظر إلى الطريق بقلق وحيرة:

"أبي لم يأتِ حتى الآن، خرج منذ الصباح وذهب إلى المركز ولم يأتِ، ولم أعرف ما سبب تأخيره، وهذه أول مرة يذهب إلى المركز ويتأخر إلى تلك الساعة من الليل والقطار قد مر منذ وقت".

وهدان يرد بكلمات تدل على شهامة ابن القرية وعادات القرية الجميلة التي أخذت تندثر في تلك الأيام:

"تفضلي أنتِ داخل البيت، الوقت متأخر ولا يصح أن تقفي في الشارع وحدك، وأنا سوف أتصرف وسأذهب إلى المحطة، وإن شاء الله يكون خيرًا".

ذهب إلى البيت واتجه إلى مكان الخيل فأخرج حصانه الأبيض واتجه إلى المحطة خارج الكفر، وأثناء سيره شاهد شخصًا قادمًا في الظلام، فسأل من القادم؟ فيرد هذا الشخص القادم: "أنا الحاج محمد، فنزل وهدان من على فرسه وسار إليه وهو يقول: "الحاج محمد، حمدًا لله على السلامة"

فيرد الحاج محمد بقلق وتلهف عند رؤيته وهدان، وظن أن كارثة قد حلت بالمنزل، وهو يقترب من وهدان يتساءل في نفسه: "العمدة بنفسه؟ أكيد أن هناك مصيبة"، فلما اقترب قال: "حضرة العمدة، أهناك شيء حدث بالمنزل أو لأحد أفراد الأسرة؟"

فيرد وهدان بهدوء تام مطَمئِنًا له: "لا، أنا كنت ذاهبًا لأطمئن عليك لكني رأيت الجماعة - كلمة الجماعة كلمة سائدة في الصعيد تُقال عندما تسأل عن الأقارب من النساء - واقفين بالطريق وقلقين عليك جدًّا، فطلبت منهم الدخول للمنزل وأخبرتهم بأني سوف أذهب لأحضرك". وسار الاثنان والحاج محمد يتأمل وهدان ومعجب بموقفه، ووهدان يجذب حصانه حتى وصلوا إلى المنزل، فاستأذن وهدان من الحاج محمد أن يذهب قائلًا له: "أتريد شيئًا آخر قبل أن أذهب؟"

فينظر إليه الحاج محمد نظرة تقدير وإعجاب قائلًا: "تشكر يا عمدة، ولكن أنت أمام المنزل تفضل لكي نتناول شيئًا".

فيرد وهدان: "يا حاج محمد لا تقل لي يا عمدة، أنت مثل أبي والوقت متأخر، وإن شاء الله سوف أزورك قريبًا، والآن سأذهب

للبيت". دخل الحاج محمد البيت واستقبلته ابنته نجلاء وزوجته فردوس استقبالًا حافلًا وهم يسألونه لماذا تأخرت؟ فينظر إليهم ويقول لهم: "دعوني أستريح أولًا ثم أجيب عن جميع أسئلتكم"، وجلس وقال لهم: "لقد تأخرت عن القطار فانتظرت القطار التالي"، فترد نجلاء عليه: "حمدًا لله على سلامتك يا أبي"، فقال الحاج محمد: "لقد وجدت وهدان على طريق المحطة وقد رجع معي ولم يتركني إلا أمام باب البيت"، فتبتسم نجلاء ابتسامة لم يلاحظها أحد، وبداخلها إحساس فخر بما فعله وهدان، وأخذ الحاج محمد يتحدث عن وهدان وأثنى عليه قائلًا:

"بارك الله في وهدان، والله كأني أرى الشيخ أحمد أمامي، نفس الطيبة ونفس الروح الجميلة، وقد شعرت بداخلي بتقدير لوهدان على الرغم من صغر سنه، ولكنني رأيته كبيرًا جدًّا، وصدق من قال (هذا الشبل من ذاك الأسد)".

ترد فردوس قائلة معقبة على كلام زوجها:

"وهدان مثل أبيه، ولكن يا حاج أنت نسيت مريم وأفعال مريم".

الحاج محمد: "مريم، مريم وآه من مريم، ستكون سببًا في دمار وهدان، وستكون الشوكة التي ستفرغ هواء الطيبة من قلب وهدان، ولكن لا ندري ماذا يخبئ لنا القدر.

نجلاء متأثرة جدًّا بالكلام، فنظر الأب إلى ابنته وقال لها: "إن شاء الله سيحدث كل خير يا ابنتي، الوقت متأخر، دعونا نستريح وفي الصباح نكمل".

ومر اليوم بسلام والكفر راضٍ بوضع وهدان وتعامله مع الناس في الكفر مثل أبيه تمامًا، ولكن علامًا غير راضٍ بذلك الوضع،

بداخله نار مشتعلة وبراكين ثائرة، ويريد صبها فوق مريم ووهدان ولكن ليس بيديه حيله.

وهو ما كانت تفكر فيه مريم وتسأل نفسها:

"لماذا علام ساكت؟ لا بد أنه يدبر أمرًا خطيرًا، فعلام ثعبان، وموضوع العمودية لن يمر بسلام، وأن يكون وهدان هو الكبير هذا شيء علام لا يقبله أبدًا، ولا بد أنه يدبر أمرًا ما، ولكن ما هو الأمر الذي يدبره علام؟"

تشتعل بعلام نار الغيرة والحقد، ويسأل نفسه: "كيف أتخلص من المشاكل الكبيرة؟ وأكبر مشكلة هي وهدان، لا بد أن تبغضه الناس، وتبحث عن بديل له، وهنا يأتي دوري في أن أجعل الناس تميل نحوي، ولكن لا بد أن يظهر وهدان بأنه مفترٍ ويتعدى على الناس ويحتقرهم، ولكن من يساعدني في تنفيذ هذه الخطة؟"

وأثناء تفكير علام بهذا الحديث يطرق باب المندرة فينتصب علام من على الكرسي ماسكًا لعصاه فاتحًا الباب، فإذا بكمال علي واقف على الباب، ينظر علام باستغراب قائلًا: "كمال، تفضل بالدخول"، فيدخل كمال ويجلس ويأمر علام بأن يحضروا شيئًا لكمال لكي يشربه، ولكن علامًا مستغرب من الزيارة المتأخرة وتجول في رأسه الكثير من الخواطر والأفكار، فينظر إلى كمال قائلًا: "شرفتنا بالزيارة، وإن شاء الله تكون خيرًا".

فينظر كمال إلى علام وهو مشبك أصابعه ببعضها قائلًا: "لقد سمعت خبر أن وهدان سوف يصبح العمدة، كيف يكون وهدان هذا الشاب الصغير مسؤولًا عن مشكلات الكفر وهو لا يستطيع تدبير مشاكل نفسه؟ المفروض أن تُسند هذه المهمة الصعبة على عاتق شخص كبير لديه حنكة في التصرف، والمفروض تكون أنت

هذا الشخص"، وهنا يريد كمال أن يكسب ثقة علام ويوقِع بينه وبين وهدان حتى تصير العمودية إليهم.

علام ينظر إلى كلام كمال مفكرًا وهو يقول لنفسه: "هذه هي الفرصة التي أطيح فيها بوهدان وأولاد موسى في وقت واحد، فيكون الطريق أمامي فارغًا نحو العمودية، ولكن كيف سيحدث ذلك؟".

فيرد علام على كلام كمال: "ولكن ماذا نفعل؟ وهدان سيصير العمدة، ونحن نسلم بالأمر الواقع".

كمال: "إن وهدان غير مراعٍ لمصالح الكفر"، فيقاطعه علام بحدة: "كيف ذلك؟" فيكمل كمال حديثه: "وهدان ما يهمه اليوم وغدًا هي نجلاء بنت الجزار"، علام: "وماذا يفعل عند محمد الجزار؟ وما علاقة وهدان بابنته؟"

كمال وكأنه يريد سكب البنزين على النار: "إن وهدان مغرم بنجلاء بنت الجزار"، علام يصب برأسه ضاربًا الأرض بعصاه الصغير وكأن الأمور تسير إليه كما يريد فينظر إلى كمال قائلًا:

"اسمع يا كمال، لا بد أن نتكاتف جميعًا ضد المهازل التي يصنعها وهدان بالكفر وسمعة الكفر"، يرد كمال علي قائلًا: "وما حيلتنا نحن؟ وكيف نتصرف أمام مهازل وهدان وهو الآن العمدة وكبير الكفر؟ ومن يحاسبه على أفعاله؟"، علام نفكر في كلام كمال وقال: "نحن نحاسبه، نحن أهل الكفر"، كمالك "ولكن كيف؟" علام يقف ويتحرك بخطى بطيئة داخل المندرة مفكرًا ثم وقف وقال: "كمال، اسمع، أنت عليك الدور الأكبر في هذه المهمة"، كمال: "وماذا أفعل أنا؟ وما حيلتي تجاه ذلك؟ هل يوجد لديك خطة؟"

علام: "غدًا أنت تذهب إلى المقهى التي يجلس عليها وهدان بعيدًا عنه، وتجعله يراك وترمي بكلمات تمس محمد الجزار وابنته"

كمال ينظر إلى علام متوهمًا مما يسمعه وهو يقول: "وهدان ربما يقتلني".

علام بصوت معبأ بالانفعال: "اتركني أكمل حديثي أولًا، أتمنى أن يفعل وهدان ما قلته، سيكون قد بدأ في طريق الفشل وكره الناس له، المهم هو أن تنفذ الكلام بالضبط، واجعله يتهور عليك أمام الناس فيرى الناس ما يفعله وهدان".

كمال: "فهمت ما ترمي إليه، تريد ظهور وهدان بالشخص المتسلط الذي يقهر الناس ويستكبر عليهم ويلعب بأعراضهم، ولا يحب إلا نفسه، إنها خطة شيطانية".

علام يتكأ إلى الخلف مبتسمًا وهو يقول: "تمام، أخيرًا قد فهمت ما أرمي إليه، وبعدما يحدث ذلك لنا لقاء آخر".

وانتهى اللقاء واستأذن كمال وذهب إلى بيته، وطوال الطريق كان يفكر بكلام علام حتى دخل منزله واستلقى على سريره ناظرًا إلى أعلى، وهو يقول: "الخطة تسير على ما يرام وكلٌّ يبحث عن مبتغاه وهي العمودية، أولاد موسى يريدون التخلص من علام ووهدان، وعلام يريد التخلص من أولاد موسى ووهدان، الكل يسير خلف أمله".

فتشرق شمس الصباح معلنة عن يوم جديد، وخرج وهدان كعادته وقبل يدي أمه واستأذنها بالخروج، وذهب راجلًا إلى الحقل يسلم على كل من يقابله، الصغير والكبير، وتابع الناس في الحقل في مناخ تملؤه البهجة والسرور، حتى أعلنت الساعة الثالثة، إنه اقتراب صلاة العصر، فسار إلى المسجد ودخل وجلس

يقرأ آيات قرآنية حتى أذن المؤذن للعصر، وتجمع الناس للصلاة، وبعد انتهاء الصلاة وقف وهدان واستأذن الناس أن يمكثوا لحظات قائلًا: "أهلي وإخواني كبيركم وصغيركم، اعذروني أن كنت مقصرًا في بعض المسائل، ولكن الضغوط كثيرة، ومن يرد شيئًا لا ينتظرني حتى يراني، بل يأتي إلي في أي وقت، بيتي مفتوح للجميع، فأنتم أهلي، من يكبرني في مقام أبي أو أخي الكبير، ومن يصغرني في مقام أخي أو صديقي، فأنا أريد منكم أن تنصحوني وتقوموني في الخطأ، فمن أسأت إليه بشيء فأنا اعتذر منه، وداري مفتوحة للجميع، فهذا ما أردت أن أبلغكم إياه، والحاضر يبلغ الغائب، والآن تفضلوا".

فخرج الناس جميعًا مبهورين بكلام وهدان، فسار وهدان حتى وصل إلى المقهى وتجمع مع صديقه خالد، الذي كان دائمًا معه، فجلسوا يتحدثون في بعض المسائل حتى قدم كمال، فدخل القهوة دون أن يلقي السلام على أحد، فجلس بجوار أحد الأشخاص بعيدًا عن وهدان بقليل، ثم دار بينهم حوار، ثم أشار كمال إلى الرجل الذي يعمل بالقهوة، فطلب منه أن يحضر له طاولة لكي يلعبوا معًا، وبدأ اللعب، ولكن أثناء اللعب رمى كمال بكلمة، قال له: "هل تعرف محمد الجزار؟".

فرد الشخص مستغربًا: "ما به الجزار؟".

كمال: "إن له بنتًا جميلة جدًّا، ولكنهم يقولون إن سمعتها سيئة".

فيرد الآخر: "اترك الخلق للخالق".

كمال بصوت عال: "إنهم يقولون إن اسمها نجلاء، وإن سلوكها سيئ، وإن لها مغامرات مع كثير من الشباب".

سمع وهدان هذا الكلام ونظر خالد إليه وحاول مسكه، ولكنه ذهب إلى كمال وقام بنهره قائلًا: "لماذا تخوض في أعراض الناس؟ امسك لسانك القبيح عن أعراض الناس".

فينظر إليه كمال باشمئزاز قائلًا: "وأنت ماذا يخصك في الأمر؟"

وهدان: "أنا مسؤول عن الكفر صغيرِه وكبيرِه".

كمال ضاحكًا ومستهزئًا: "أنت مسؤول عن الكفر؟ والله عجبًا! الأطفال كبرت وعرفت معنى المسؤولية والعمودية".

فاشتاط وهدان غضبًا وتعدى الموقف الكلام ووصل إلى التشابك بالأيدي والضرب، فحاول خالد أن يفرق بينهم، ولكنه لم يستطع، فاشتد الموقف، وكان كمال جسيمًا، فضرب وهدان بالكرسي وأصابه في رأسه، فسالت دماؤه، وأخذ المتواجدون كمالًا بعيدًا، وأخذ خالد وهدان وذهبوا إلى المنزل ووهدان رأسه مصابة والدماء قد سالت على ملابسه وملابس خالد، فشاهدته نجلاء والدماء تسيل منه وكأن قلبها قد انفطر من هذا الموقف، فدخلت مسرعة، فنظر إليها أباها وقال: "ماذا حدث يا نجلاء؟".

فنظرت إلى أبيها وهي تلتقط أنفاسها والخوف يعصر قلبها: "وهدان ...".

الحاج محمد مقاطعًا حديثها: "وهدان؟ ما به؟".

فقالت بأنفاس حزينة: "دماؤه تسيل وغاضب جدًّا".

الحاج محمد ضاربًا كفيه يقول: "هذه مصيبة، هل هي حادثة أم شخص حاول قتله؟ إذا كان حادثًا عابرًا سوف ينتهي بخير، وإذا كان هناك من حاول قتله في الكفر فستلتهمه نيران مريم وغضبها، نتمنى أن يكون حادثًا عابرًا".

تـرد نجـلاء والحـزن والقلـق مـازالا مسـيطرين على قلبهـا وتريـد أن يطمئنها أي أحد على وهدان، قالت: "آمين يا رب".

ودخـل وهـدان المنزل متكئًـا على خالـد، فـرأتـه أمـه، فقالـت بصـوت عالٍ رجت به جدران المنزل:

"وهدان ....".

فالتفت إليها الاثنان ورد وهدان وهو يشعر بالألم:

"نعم يا أمي".

مـريم والغضـب يسـيطر عليهـا واشـتعلت عيونهـا نـارًا وهـي تقـول بغضب حاد:

"مـاذا حـدث؟ ومـا تلـك الـدماء التي لطخـت ملابسـك؟ ومـا هـذه الجروح التي في رأسك؟ ما سببها يا وهدان؟".

فيرد خالـد: "مشكله بسيطة يا سيدتي، والحمد الله خير، العمدة وهدان سليم وبخير".

فتنظـر إليـه مـريم بعينـين حـادتين وكأنهـا تطلـب منـه المغـادرة، فـيفطن هـو لـذلك، فيقـول: "أسـتأذن أنـا وغـدًا سـأمر عليـك لكي أطمئن عليك".

ويطلب الإذن بالانصراف وينصرف، وتنظر مريم إلى وهدان قائلة بعد أن هدأت: "وهدان أصدقني القول، ما سبب تلك الدماء؟".

فإذا بوهدان يرد ردًّا عابرًا:

"مشكلة بسيطة يا أمي وانتهت على خير".

فتسأل مريم: "مع من المشكلة يا وهدان؟".

يسكت وهدان قليلًا، فتقوم بنهره، فيرد:

"مع كمال علي، من أولاد موسى"

مريم باستغراب تام:

"كمال علي من أولاد موسى يضرب وهدان ابن كبير البلد؟! يا وهدان، إذا أردت أن تعيش وسط الذئاب لا بد أن تكون ذئبًا يا وهدان، أرأيت كلبًا عض ذئبًا؟ أو رأيت حمامًا أكل صقرًا؟".

وهدان معقبًا على كلام أمه: "لم أرَ يا أمي".

فتكمل مريم حديثها ونصائحها لابنها بصوت يعلوه الغضب والحدة:

"لا بد أن تكون ذئبًا يا وهدان، وليس أي ذئب، بل أكبر ذئب حتى يهابك الجميع، واعلم أن عهد الطيبة مات، ولا بد أن تكون صقرًا حتى لا تأكلك الغربان، ادخل يا وهدان نظف الدم وطهر الجرح، ولا تخرج من البيت اليوم، ولا تظهر أبدًا".

وهدان: لماذا يا أمي تحبسينني بالبيت؟ أنا ليس هناك من يحبسني".

الأم تغضب غضبًا شديدًا وتقوم بلطم وهدان على وجهه لطمة قوية وهي تقول:

"لا أحد يكسر كلمة مريم أبدًا، وما أقوله سيكون".

وهدان ينصرف مسرعاً إلى أعلى والغضب يملأ وجهه، وتجلس مريم والغضب يسيطر عليها، وبصوتها القوى تنادي: "يا زعتر، يا زعتر، يا زعتر".

فيدخل زعتر الخفير الخصوصي وهي تقول له: "غدًا أريدك في مهمة، ولكن لا أريد أن يعرف أحد هذا أبدًا، وتمر علي في الصباح الباكر لكي أخبرك بالمهمة التي أريدك أن تنفذها، والآن اذهب ولا تنسَ موعدنا في الصباح ".

وتذهب مريم إلى غرفتها ليستريح الجميع من هذا اليوم العصيب.

* * *

الفصل الثاني

ناقوس الخطر يدق طبوله وكأن الحروب قد بدأت مرفرفة لتعلن عن أيام حزينة على أهل الكفر، وفُتح الباب على مصراعيه لتعلَن الحرب وتدق طبولها، والكل يحلم في الوصول إلى الكرسي، المرض الذي سكن في نفوس الناس بأي طريقة، الجميع يحاول الوصول إليه، وبدأ ناقوس الخطر وساعة الإنذار تدور، والأعين متأهبة، فكرسي العمودية فارغ ولم يقرَّر رسميًّا من العمدة من قبل الجهات المسؤولة بالدولة، ولكن مريم جعلت وهدان العمدة وفي انتظار الموافقة الرسمية علي ذلك، وعلام يحلم به، وأولاد موسى يحلمون به، ومريم ستجعل وهدان العمدة بأي طريقة كانت وبأي وسيلة من الوسائل، فمريم شر كامن في صورة امرأة، ولم تتأخر الموافقة طويلًا، فقد حدث ما أرادته مريم، لقد تم الإقرار بتولية وهدان عمدة على كفر سمنهور، ولكن ما حدث اليوم بين وهدان وكمال هذا هو ناقوس الخطر الذي لا بد أن نحذره ، فاذا بدأت قطرات الدماء تسيل فانتظر سيلًا عرمًا من الدماء سوف يغطي الكفر كله ويُغرق الجميع، الكبير والصغير، فكلنا ملوثون بالدماء، ومن لم تؤذه النار يؤذه دخانها، وأهل الكفر لا حول لهم ولا قوة، فقراء جاهلون، ماذا سيصنعون؟ ويبدأ يوم جديد ويذهب زعتر لمقابلة مريم كما طلبت منه، فقالت له: "زعتر، أريدك في مهمة".

فقال لها: "تحت أمرك".

مريم تنظر إليه بنظراتها الحادة وتقول له: "أنت تعرف ما حدث لوهدان والمشاجرة التي دارت بينه وبين كمال".

قال لها: "نعم، تريدين أن أجلب لك كمال مكبلًا أمامك؟".

قالت له: "لا، بل أريدك أن تسير مع وهدان أينما ذهب، تكون مثل ظله لا تتركه أبدًا، مفهوم يا زعتر؟".

زعتر ينظر إليها قائلًا: "حسنًا يا سيدتي، سأكون درعه وسلاحه".

وتغيب شمس النهار ويأتي الليل بظلامه الحالك، والقمر لم يشرق الليلة في السماء ليقلل من ظلامها، وتدق أجراس الساعة الثانية صباحًا بعد منتصف الليل، وإذا بشخص يرتدي السواد لا يظهر منه شيء، يجلس وسط الطريق في القرية ينتظر شخصًا قادمًا من بعيد يغني ويترنم بالكلمات ويتفاخر بما حدث على المقهى، حتى اقترب منه فجعله يمر، ثم فجأة نادى عليه وقال له:

"كمال".

فيلتفت كمال: "من؟".

يقول هذا الشخص الملثم بصوت الجشع ووسط هذا الظلام وتلك الليلة الباردة والرياح تعصف ولم تبرز منه إلا عينان حمراوان غاضبتان وكأنه جني:

"يا كمال، الكلاب كثُرت في الكفر ونريد أن نطهره".

فينظر كمال إليه متسائلًا:

"ماذا تقصد؟ وما دخلي أنا بالكلاب؟".

وعينا كمال بالفزع والرعب مليئة، وكأنه قد سقط عليه صخر من الجبل فهشم رأسه وأوقفها عن التفكير، فيقول كمال بصوت مرتفع عسى أن يسمعه أحد فينتشله من تلك المشكلة:

"من أنت؟".

فيرد الملثم: "ليس بمهم أن تعرف من أنا، والأيام القادمة ستكون أيامي أنا، وأيام الكفر ستكون مثل ذلك الليل الحالك، ولكن هناك رسالة أريد أن أبلغها لك".
كمال يرد والخوف يكاد يقتله والعرق يتصبب منه على الرغم من برودة الجو، وليس هناك أحد يسمعه والليل حالك الظلام: "وما هي الرسالة؟".
الملثم قال:
"هناك كلب يجب أن يموت اليوم يا كمال"، وأخرج مسدسًا من جيبه وبه كاتم للصوت وأطلق عليه النار، فسقط كمال ملطخًا بدمائه، ثم اخرج خنجرًا من جيبه وقام بذبحه تمامًا وتركه في بركة من الدماء، وتلاشى في الظلام كما يتبخر الماء في الهواء وكأن لم يكن أحدًا هناك.
وتشرق الشمس ويخرج النهار، ولكن هذا اليوم غريب في أعين الناس، لا تدري ماذا هناك، وتبدأ الناس بالسير إلى الحقول للعمل، فيشاهدون شخصًا ملقى على الأرض غارقًا في بركة من الدماء فيتفقده الناس، فإذا بأحدهم يصرخ ويقول: "كمال قد قُتل"، وكانت جريمة بشعة جدًّا، وانتشر الخبر في الكفر كله، وكل الاتهامات تشير إلى وهدان، وهذا ما أراده علام، والكل يتساءل عن الذي قتل كمال، هذا السؤال الذي لم يستطع أحد الإجابة عنه، وبدأ علام يرمي بالكلمات وهو يقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله، مشاجرة بسيطة تنتهي بقتل! لا إله إلا الله، سامحنا الله جميعًا، لماذا نلوث أيدينا بالدماء؟ كل شيء له حل، وكنا نستطيع حل تلك المشكلة البسيطة بدلًا من إراقة الدماء، لا حول ولا قوة إلا بالله"، ويضرب علام الأرض بعصاه ويتقهقر إلى الخلف، أراد علام

أن يثير الفتن والشكوك حول وهدان، وانتظر الجميع حضور القوة من المركز لمعرفة الأمر، ومريم ووهدان أيضًا يتساءلان عمن قتل كمال.

ونجلاء ارتجف قلبها عند سماع الخبر، وكأن طعنة أصابت قلبها وهي تقول لنفسها: "وهدان يقتل؟ كيف؟ هل يمكن أن يكون هو القاتل؟" وتجيب عن نفسها: "انتقامًا لما حدث له في المقهى"، فينظر إليها أبوها وهو يدرك ما تفكر به، فيقول لها: "وهدان يستحيل أن يلوث يديه بدماء أبدًا، وهدان مثل أبيه تمامًا".

نجلاء تنظر إلى أبيها وكأنها غير مقتنعة بهذا الكلام: "يا أبي، عندما أتى والدماء تملأ وجهه ونيران الغضب بعينيه دل هذا على أنه قد يفعل أي شيء".

ولكن الأب يؤكد لها أن وهدان لم يقتل أحدًا.

انتشر الرعب في أعين الناس من وهدان؛ لأن كل الناس شاهدة على المعركة التي دارت على المقهى وتهديدات وهدان لكمال، وحضرت الشرطة واستضافهم وهدان في منزله بصفته كبير البلد وابن العمدة والمعروف على مستوى الكفر والمركز، وقامت مريم باستقبال الضيوف وأعدت لهم الطعام، وجلس الضباط على طاولة الطعام، وأحضرت لهم أشهى الأطعمة، وجلست الغفارة والعساكر والمخبرون في غرفة أخرى وأعدت لهم الطعام وبدأ الجميع بتناول الطعام.

وخرجت مريم ثم صعدت إلى أعلى فدخلت غرفتها، وما لبثت أن عادت حتى أشارت إلى وهدان فاستأذن وصعد إليها، فأعطته كمية من النقود، فنظر إليها وهدان باستغراب: "ماذا أفعل بتلك الأموال؟ أتريدين شراء شيء؟"، تنظر إليه أمه وتقول له: "ما زلت

صغيرًا يا وهدان، هذه الأموال تأخذها وتوزعها على المخبرين والعساكر"، ولكن وهدان تساءل عن السبب، فنظرت إليه وكأن الغضب حام على رأسها وهي تقول: "وهدان، افعل ما أمرتك به حتى لا نتأخر على الناس بالأسفل، ولكن اسمع، وأنت تعطي المال لهم اجعله في الخفاء، اجعل كل واحد منهم يشعر أن الآخر لم ينتبه".

وهدان ما زال يتساءل عن السبب، قالت مريم: "اذهب الآن ثم نكمل بعد ذلك".

وانصرف الجميع ونفذ وهدان ما أمرت به أمه ولم يستدلوا على شيء في قتل كمال، وودع وهدان الضباط، ولكن ما زال في رأسه كثير من الأسئلة التي يريد الإجابة عنها، فدخل البيت فوجد أمه جالسة، فقال لها: "لا بد أن أفهم لماذا تلك النقود يا أمي؟".

مريم نظرت إليه ضاحكة وكأنها أول مرة تبتسم، ذلك الوجه حاد الطباع كأن الابتسامة لم تزره قط، فتقول: "يا وهدان، الغفر والمخبرون هم الذين يعكسون الصورة للكبار، السماع والحارس هم الموجودون دائمًا، لكن الكبار شهر هنا وشهر في بلدة أخرى، فقد يُنقل الكبير ويأتي غيره، ولكن السماع والحارس هما اللذان يعكسان له صورة البلد، ومن خلاله يبدأ المسؤول يتحرك، ومن الذي يجمع المعلومات؟".

وهدان ينظر إليها ضاربًا على رأسه وكأن السؤال صعب، ويقول: "السماع والحارس، ولكن ما دخل هذا في ذاك؟".

تنظر إليه مريم قائلة: "يا وهدان، المخبر هو الذي ينقل الصورة الحقيقية، وما دام هؤلاء في يدك يا وهدان فكل شيء سهل بالنسبة لك، واعلم يا ولدي أنك بالمال تسيِّر في البحر طريق،

وبالمال يا وهدان يكون لك ألف عين وألف يد يدافعون عنك، ونصيحة يا ولدي، ستجد الناس دائمًا تجري وراء مصلحتها، هناك أناس يا وهدان لم يكن معها شيء ولكن الله أكرمها وجمعت الأموال، تجد كثيرًا من الناس تذهب إليهم وتتودد لهم، على الرغم من أنهم في أيام فقرهم لم يكن أحد يفكر بهم، حتى بإلقاء السلام عليهم،".

فيرد وهدان على الأم وهو يتساءل: "كل ما ذكرتيه يخص الصغار، كيف نتعامل مع الكبار؟ أخبريني بهذا، إن دماغي قد توقف عن التفكير وكأنني لا أعرف شيئًا".

مريم تنظر إلى وهدان ضاربة فوق رأسه مداعبة إياه: "بالهدايا وغيرها يا وهدان، كل واحد وله مداخله، ولا يوجد شخص ليس له نقطة ضعف".

وهدان: صح يا أمي يا كبيرة البلد، والله إن رأسك لتزن كفرًا مثل كفرنا، لا لا، بل مديرية كاملة"، فضحكوا معًا، وقالت: "يا وهدان، هل نفذت ما أمرتك به في توزيع الأموال؟"، فقال وهدان: "نعم يا أمي، ولكن لماذا نخبئها؟ ولماذا لم نعطهم الأموال في العلن؟".

فتقدم مريم لوهدان النصيحة وهي تقول له:

"يا ولدي، كل واحد أمام الناس يتظاهر بأنه شريف، ويظهر نفسه أفضل شخص، وأنه لا يحب هذا في ظاهره، ولكن بداخله يحب ذلك، ولكن قليلًا ما تجد أشخاصًا أنقياء فعلًا في هذا الزمن يا وهدان، من لديهم ضمير اليوم مثل عسل النحل النقي، أما الآخرون مثل عسل النحل المغشوش يا ولدي".

فيسأل وهدان والدته:

"ولكن يا أمي أنت تعرفين من قتل كمال؟"
فترد مريم غاضبة من سؤال وهدان:
"انسَ هذا الموضوع، أنت وضعت رجلك على أول الطريق، لو سقطت لن تستطيع النهوض مرة أخرى وعمك سيأخذ الفرصة، وهذا ما يريده علام ويتمناه في كينونته".
ينتهي اليوم ويخرج الجميع والقضية بعد التحقيق لم يُستدَل على القاتل، وعدوها سرقة والقاتل مجهول، ولكن علامًا استشاط غضبًا، فقد أراد أن ينهي الكل بضربة واحدة ولكن لم تفلح حيلته، وأرسلت إليه مريم مرسالًا تريد مقابلته، وحيل الشر التي رسمها علام كلها باءت بالفشل، وكل تفكيره كان عن سبب إرسال مريم له: "هل عرفت شيئًا عن الاتفاق الذي بيني وبين كمال؟"، وإذا كانت قد عرفت فستكون أيامًا سوداء على علام، ولكن علام يحاول بكل الطرق أن يكسب مودة مريم، فبدأ يغير جلده كالحرباء ويظهر في مظهر الذي يخاف على مصالح وهدان، ولكن الثعبان لا يأمن أحد مكره أبدًا، والثعبان لا يدخل الجحر بذيله، فدائمًا يدخل برأسه حتى يحميها، فإن ذيله لا يهم، فليس هناك ثعبان يموت بمجرد قطع ذيله، وعلام لا بد أن تُقطع رأسه حتى يأمن الناس مكره وشره وسمه الذي ينفثه في كل مكان، وقام ليذهب إلى مقابلة مريم، فحضر ولكن هناك ألف سؤال في رأسه يدور، فنظر إلى مريم وهي جالسة وتقدم إليها وخطواته تكاد لا تحمله، ولكنه ظهر أمامها بمظهر الثبوت، فأشارت إليه بالجلوس فجلس، ونظرت إليه بحده وهو يواري عينيه بعيدًا عنها، فتقول: "ما بك يا علام؟ هل هناك شيء؟ يظهر عليك القلق"، فيرد عليها مبررًا بأن الأحداث التي مرت بالكفر تجعل الشخص قلقًا على

نفسه وحياته، فتنظر إليه أيضًا متأملة كلامه وتقول: "من فعل ذلك ثعبان كبير وخبيث جدًّا، ولكن يا علام الثعبان مهما زاد خبثه وكثر سمه لو وقع عليه حجر صغير لأودى بحياته، فاحذر يا علام هذه الأيام لأن الأيام غير مضمونة، وحاذر على خطواتك هذه الأيام".

علام متسائلًا: "ما القصد من وراء هذا الكلام كله؟ أهناك شيء حدث مني يا مريم؟"

مريم ترد غاضبة على علام وهي تقول: "اسمي الست مريم يا علام، ولا تنس الاسم مرة أخرى، مفهوم؟".

فينظر علام إليها وكأنه قد سقط في بئر ليس له قرار من كلام مريم، فتنظر إليه قائلة:

"اعلم يا علام، إما أن تساعد وهدان وتقف معه، وإما أن تكون عدوه، ويا بلواه من يكون عدوًّ لمريم أو لوهدان، مفهوم الكلام يا علام؟ وإن كان بداخلك كلام أو أي شيء أخرجه حتى نضع النقط فوق الحروف ونعلم من معنا ومن ضدنا، أتمنى أن يكون كلامي مفهومًا وواضحًا".

فينظر علام وهو يضرب على قدمه بعصاه ضاحكًا ضحكة صفراء، فيقف قائلًا : "مفهوم يا ست مريم"، ويجذب جلبابه ويخرج مسرعًا، ويفتح الباب بغضب ويقفله بشدة، وخرج علام من دار مريم والخيبة تجر أذيالها خلفه، والغضب يشتعل بعينيه، ويفكر ماذا سيفعل في هذه المشكلة الكبيرة، ويقول لنفسه: "أحمد مات وكنت أظن أني بهذا قد صرت العمدة رسميًّا، ومقتل كمال صب في صالح وهدان وأخذ شهرة، وأهل البلد أصابهم الفزع منه، يظنون أنه هو الذي قام بقتل كمال نتيجة للمعركة

التي دارت بينهم على المقهى، ولا أحد يستطيع أن يجزم من الذي قتل كمال، آآآه، خسرت كل شيء والحل الوحيد أنك تكون في صف مريم ووهدان، وبعد ذلك يحلها المولى من عنده"، فجلس على الكرسي واتكأ إلى الخلف مفكرًا وسائلًا نفسه: "ما الحل في تلك المعضلة؟ فمريم تضعني في امتحان صعب، إذا بعدت عن وهدان لن أعرف ماذا تدبر مريم، ولكن أفضل حل أن أكون بجوار وهدان، ولا بد أن آخذ وهدان في حضني حتى يطمئن لي تمامًا وانتهز فرصة الخلاص منه ومن أمه معًا، وحتى ذلك الحين يحلها الله من عنده".

دائمًا البشر يستعينون بالقانون الإلهي في الشر وتدمير سبل الخير، وحتى عند السعي في القتل وإسراف الدماء وخراب الكفر وإرهاب الناس نستعين بالقانون الإلهي، ونستعين بالمولى عز وجل لكي يقف معنا في التدمير والقتل والخراب، وهذا غير معقول وكأننا مغيبون تمامًا وليس في رؤوسنا عقول نفكر بها، إن ما نفعله من شر وتدمير وخراب هذا من فعل الشيطان أو فعل أنفسنا، فلا نعقل وندبر أمورنا ونفكر فيما نحن مقدمون عليه، ولكن نفعل الشيء وندمر أنفسنا بأيدينا ويصيبنا الندم بعد الضياع، ماذا سيحدث لو مكثنا دقائق نفكر قبل الإقدام على العمل؟ ماذا سيحدث لو سألنا قلوبنا إن كان العمل الذي نفعله صحيح أم خطأ، ولكن أهواء البشر دائمًا ما تقود إلى الهلاك.

وتمر الأيام والحادثة تطويها الليالي وتأخذها الأيام لكي تتوارى خلف جدران الزمن، ولكن لم تُمحى من ذاكرة الناس، بل ظلت ساكنة والكل عدَّ أن جنيًّا هو من قتل كمال، وبدأت الناس تروي قصص الجني الذي يقتل الناس ويخرج في الطريق في الليل، وأهل

الكفر كلهم قد صدقوا هذا الكلام وحذروا أولادهم من التأخر ليلًا، حتى لا يكون مصيرهم مثل مصير كمال.
ويذهب وهدان لوالدته ليخبرها بأنه يريد الزواج، فتفرح مريم فرحًا شديدًا بهذا الخبر؛ لأن هذا ما تتمناه كل أم لولدها، أن تراه سعيدًا وفرِحًا بحياته.
فتقول: "هذا ما أتمناه يا ولدي، أن أراك سعيدًا فَرِحًا في بيتك مع عروسك، ولكن من العروسة يا وهدان؟".
فيرد وهدان بصوت متقطع يخشاه الخوف من والدته، وكأن ملائكة الموت تحوم حول رأسه: "هي بنت ناس طيبين من الكفر، وبنت جميلة ومؤدبة وعلى خلق"، وأخذ يعدد محاسنها".
فترد امه ناظرة إليه محدقة فيه، وكأنها فطنت لشيء غير طبيعي من كلام وهدان، فقالت: "من العروسة يا وهدان؟ هل أنا أعرفها؟".
فقال لها بخوف وقلق وأعين زائغة وشفاه عاجزة عن نطق الاسم: "إنها بنت جارنا محمد الجزار".
فترد أمه بغضب وشدة وكأن الجبل انهار فوق المنزل فدكه دكًّا، وكأن صاعقة من السماء وقعت على أذنها:
"ابنة فردوس يا وهدان؟ في بنات البلد كله لم تعجبك غير ابنة فردوس؟".
فيرد وهدان باستغراب من كلام أمه متسائلًا:
"وما بها ابنة فردوس يا أمي؟ هل بها ما يعيبها؟ أخبريني، هل سيرتها سيئة في الكفر؟".
مريم تنظر إليه وتقول: حاشا لله يا ولدي، ولكن المقام يا وهدان، أنت سليل الأكابر وسليل النسب تتزوج بابنة محمد الجزار؟ إن

جدها كان يخدمنا قديمًا يا وهدان، وكان يعمل بأرض جدك الكبير، وعلاقتهم بالكفر يا وهدان مثل نبات البرسيم ليس له جذور قوية، ولكن أنت كالنخيل جذوره ممدودة وقوية بالأرض، يا ولدي اختر لنفسك نسبًا يكون لك سندًا وعصبًا، واختر لابنك خالًا يفخر به يا ولدي".

يرد وهدان:

"يا أمي الدنيا قد تغيرت والإنسان بنفسه وأخلاقه لا بحسبه وماله، وأناس كُثر كانوا في الكفر لا يصلون إلى درجة الخادمين ولكنهم الآن في مناصب عالية، والناس تتمنى أن تكلمهم وتسير معهم وتقدمهم على أنفسهم يا أمي".

ترد مريم ناظرة إلى وهدان وهي تبتسم قائلة:

"أول مرة تقنعني، واعلم يا ولدي أنك أغلى شيء في حياتي، ولا يهمني إلا سعادتك يا وهدان، المهم، هل البنت جميلة؟".

فيبتسم وهدان قائلًا بتلهف: "جميلة جدًّا يا أمي، أجمل بنت في الكفر والكفور المجاورة، بل في المركز كله".

فترى أمه اللهفة والفرحة لا يفارقان عينيه، وتحلقان مرفرفين على وجهه، وأصبح مشرقًا منيرًا من الفرحة، فترد مبتسمة: "ما بك وكأنها قد أسرتك هكذا؟" وتقول بسخرية مداعبة وهدان: "أنا خائفة من أن البنت قد تجعلك حمارًا".

فيرد وهدان:

"ما هذا الكلام يا أمي؟ أنا وهدان السمنهوري"، ترد الأم مداعبة ابنها: "غدًا نرى ما سيحدث" فيستفسر وهدان منها: "المهم هل أنت موافقة؟"، فتضحك وتقول له: "موافقة يا وهدان".

وهدان: "ومتى سوف نذهب لمقابلتهم؟"، فترد عليه: "تحدث مع عمك علام، فهو الكبير، وحدد الميعاد، وفي أي وقت نذهب وننهي الموضوع"، فيقوم وهدان بتقبيل يد أمه ورأسها وهي مبتسمة قائلة:

"أصبح بإمكانك أن تخدعني يا وهدان".

وهدان ضاحكًا: "لا حرمني الله منك أبدًا"، ويخرج مسرعًا والفرحة تصاحبه، وينادي زعترًا، فيقبل زعتر عليه مهرولًا وهو يقول: "نعم يا سيدي وهدان، أتأمرني بأي شيء؟" فيضرب وهدان بعصاه على الأرض وهو يقول: "يا زعتر، اذهب إلى دار عمي علام وأخبره إنني قادم إليه، ثم ارجع مسرعًا لتخبرني هل هو موجود أم لا حتى نذهب معًا إليه إذا كان موجودًا"، فينصرف زعتر مسرعًا إلى دار علام.

علام جالس في الدار والحيرة تركب رأسه كأنها طيور مفترسة تأكل فيها، والحقد يكبل قلبه ويسيطر على جميع أركانه، وعيناه تترنح يمينًا ويسارًا والقلق يغرقه في بحره الخضم ولا يدري كيف التصرف مع مريم وابنها وهدان، فيقول لنفسه: "هل اقتل مريم؟" ثم يرد مجيبًا: "لا لا لا، صعب جدًّا التخلص منها، فهي تعرف كل شيء، بقتل وهدان أكون قد حفرت قبري بيدي؛ لأن مريم تعلم أنني الوحيد الذي أريد التخلص من وهدان، والحارس الذي يسير مع وهدان دائمًا شكله مجرم خطير وينقل كل صغيرة وكبيرة لمريم". وما إن ينهي كلامه حتى يطرق الباب، فرد منزعجًا: "من؟ حاضر"، فإذا به يفتح الباب ويفاجأ بزعتر، فيرتجف وهو يقول: ربنا يستر، ماذا تريد يا زفت؟ أفزعتني، ما وراءك؟".

زعتر:

"ما بك يا كبير؟ هل أنت غاضب لأنك رأيتني؟ سيدي وهدان أرسلني لكي أعرف إن كنت موجودًا أم لا، لأنه يريد أن يحدثك في أمر مهم، سأذهب إليه وسوف أخبره بأنك بانتظاره".
علام ينظر إلى زعتر مشمئزًا منه ويقول: "موضوع مهم! ما الموضوع المهم الذي يريدني سيدك فيه؟".
زعتر: "أنا لا أعرف شيئًا، انتظر حتى يأتي سيدي وهدان وأنت ستعرف كل شيء، والآن أستأذن لإحضار سيدي وهدان"، وذهب زعتر إلى المنزل ودخل فوجد وهدان جالسًا فألقى السلام عليهم، فقالت مريم: "تعال يا زعتر ماذا تريد؟" زعتر: "سيدي وهدان أرسلني إلى علام لكي أبلغه بحضوره"، فينظر وهدان إلى زعتر: "وهل وجدته؟"
زعتر: "وجدته يا سيدي وهو بانتظارك"، فيستأذن وهدان من أمه للذهاب إلى علام ويصحبه زعتر حتى يصلوا إلى دار علام وعلام جالس في حيرة وقلق حتى طرق الباب، فإذا بوهدان وخلفه زعتر، فيدخلون فيلقي وهدان السلام على عمه ويسلم عليه وهو يقول له: "يا عم، أريد أن أتحدث معك في موضوع مهم جدًّا"، فأخذه العم إلى الداخل وزعتر خلفهم، فيلاحظ علام ذلك، فيقول له: "ابقَ بالخارج يا زعتر"، فيرد زعتر: "أنا لا أستطيع ترك سيدي وهدان أبدًا، هذه وصية السيدة مريم، أم أنك تريد أن تغضبها؟"، وهدان: "يا زعتر، اجلس في الخارج، أنا سوف أتحدث مع عمي في موضوع مهم واسمع الكلام يا زعتر".
زعتر: "أوامرك سيدي وهدان".
فيدخل علام ووهدان المندرة ويجلسون يتحدثون، فيقول علام:

"خيرًا يا ولدي الغالي؟"، أراد علام أن يغير من تعامله مع وهدان لكي يكسب ثقته ويقربه منه.

وهدان: "كل خير يا عمي، أنا أريد أن أتزوج، وحضرت اليوم حتى آخذ رأيك؛ فأنت عمي ومثل أبي".

علام يرد فرِحًا لأنه دارت في رأسه فكرة وهو يقول:

"هذا خبر جميل"، والفرحة كادت أن تقفز من عيني علام؛ لأنه ظن أن وهدان يريد أن يتزوج من ابنته فاتن، وهو يقول لنفسه: "هكذا ضمنت الأرض والمال، وهدان يتزوج بفاتن وستكون هي سيدة البيت والكبيرة، وبذلك أكون قد ضربت جميع العصافير بحجر واحد".

وهدان ينظر إلى علام مناديًا عليه: "عمي ما رأيك؟".

فيرد علام قائلًا:

"على البركة يا ولدي، ولكن من العروسة؟"، فيرد وهدان مبتسمًا: "بنت الحاج محمد الجزار جارنا"، وهنا تغير وجه علام تمامًا وكأن صخر الجبل الذي يسكنون بجواره قد سقط فوق رأسه، وكأن طيور الظلام عششت في وجهه، وخفافيش الليل قد هبت بأجنحتها لتلتصق بوجهه، ويسيطر عليه غضب شديد وانفعال بعد هدوء قائلًا:

"محمد الجزار ابن الخادم أنت تتزوج بابنته؟ والكبيرة موافقة على هذا الكلام؟".

فيرد وهدان:

"أمي كل ما يهمها هو سعادتي، وهي موافقة، والبنت ذات أخلاق عالية، وهذا ما يهمني"، يرتفع الصوت بين وهدان وعلام، فيدخل زعتر وهو يقول:

"هل هناك أمرًا ما سيدي وهدان؟".
فيلتفت علام إلى عيني زعتر التي تريد الخلاص منه بأي وسيلة؛ لأن زعتر يعلم أن علام لا يحب وهدان أبدًا، فيرد علام:
"لا لا، كل شيء تمام، المهم يا وهدان يا ولدي مبارك لك، وتمم الله لك على خير"، ويقولها علام بنفس غير راضية، فيرد عليه وهدان قائلًا: "المهم يا عمي، غدًا بعد صلاة العصر سوف نذهب لملاقاة أبيها ونتحدث في تفاصيل الزواج ونحدد كل شيء".
علام: "على خيرة الله يا ولدي، وإن شاء الله ستجدني منتظرك أصلي العصر في المسجد وأمر عليك بالدوار ونذهب إن شاء الله".
وترك وهدان المنزل وخاب أمل علام، ونزلت فاتن مسرعة تسلم على وهدان وهي تناديه، فيلتفت إليها قبل الخروج من الباب ويعود إليها مسلمًا، فتقول له: "كيف حالك؟ وكيف حال والدتك؟ والله لقد اشتقت إليكم جدًّا، وأنت منذ أن صرت عمدة اختفيت تمامًا، أشغال العمودية تمنعك عنا"، فيقاطعها أبوها قائلًا: ألن تباركي لوهدان؟".
فتنظر فاتن لوالدها وتنصرف عيناها إلى وهدان وهي تهز رأسها: "على ماذا؟".
فيرد علام بغيظ يكتمه داخله، وغضب يظهر بعينيه:
"إن وهدان سيتزوج من بنت الجزار".
فاتن مبهورة والفرحة ترقص بعينيها، فقد وقع هذا الخبر على قلبها بفرح كبير، فقالت: "نجلاء؟".
ينظر إليها وهدان ويقول لها: "نعم إنها نجلاء".
فاتن مبتسمة: "مبارك لكما، هي تستحق كل خير"، وتهمس لوهدان بصوت منخفض قائلة: "الحب الأول يا أخي"، فيقول لها:

"كما أنت لا تتغيرين أبدًا، العاقبة لك أنت الأخرى"، فتصاب بالخجل، ويستأذن وهدان بالخروج.

طار الخبر إلى نجلاء من خلال فاتن، فأصابتها الفرحة للغاية، وأبوها قد لاحظ تلك الفرحة على وجهها، وبعد أن خرج وهدان، حزن علام حزنًا شديدًا؛ لأن خطته باءت بالفشل، فقام بالصعود إلى ابنته وقال بغضب: "لماذا أراكِ مبتسمة وسعيدة والمفروض أن تكوني حزينة على الخيبة التي أصابتنا جميعًا؟".

فترد فاتن على أبيها باستغراب شديد: "لماذا أكون حزينة؟".

فينظر علام إليها وهو يقول والحزن سيطر على كلامه:

"وهدان سيتزوج من غيرك يا غبية، المفروض أن تكوني أنت زوجته وليس ابنة الجزار".

فترد فاتن على أبيها:

"ومن قال إني أريد الزواج من وهدان؟ وهدان مجرد أخ، ولم يخطر ببالي أبدًا أن وهدان سيكون لي زوجًا".

الأب:

لقد اقتربت من أن يصيبني الجنون منكم"، ويضرب الأرض بالعصا ويخرج من الغرفة ضاربًا باب الغرفة خلفه ضربه قوية زلزلت أركان المنزل كله، كاد الزجاج أن يتطاير، ولكن على الرغم من كل هذا فقد كانت فاتن في غاية السعادة.

ولكن ما السر وراء فرحة فاتن بزواج وهدان من نجلاء؟ ولماذا كل هذه السعادة التي ظهرت على وجهها وكأن القمر أشرق قبل ميعاده؟ وكانت فاتن تخاف أن يكون وهدان قادمًا لطلب يدها وهي التي تعده أخًا فقط، ولم تفكر به يومًا كزوج، ولكن هناك من شغل قلبها وشغل عقلها واشعل نيران الحب بعواطفها،

وامتلك كل جوارحها ولا تمنع نفسها من التفكير فيه أبدًا، وأرادت أن يربطهما الرباط المقدس ويجمعهما عشهما الجميل، وأن يخلد الزواج حبهما، فقد شغفت به لدرجة الجنون، ثم تفوق من حلمها الوردي قائلة لنفسها: "ولكن كيف؟ وهل أبي سوف يوافق على زواجي من شريف ابن محمد الجزار أخي نجلاء؟"، وتمنت من كل قلبها أن تتزوجه، فترجع وتجيب عن نفسها: "ولماذا لا وقد أخذ وهدان خطوة الزواج من نجلاء وأصبح الموضوع قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة، وبهذا يكون الطريق خاليًا، لكنها تتذكر شيئًا ويصيبها الحزن متسائلة: "وهل نجلاء ستوافق على وهدان وبخاصة بعدما تلطخت يداه بدم كمال؟" وترفع يديها وهي تقول لنفسها: "ربنا يستر، والموضوع يتم على خير ونجلاء توافق يا رب...".

خرج الجميع، وهدان وزعتر، واتجهوا إلى المنزل، وصعد وهدان إلى غرفتهن ونادت الأم على زعتر سائلة:

"ماذا حدث عند علام؟"

فأجاب زعتر:

"لم يحدث شيء"، وأدار وهدان الراديو وكانت نشرة الأخبار، وكان وهدان مهتمًا بمتابعة الأخبار، فسمع صوت أمه يناديه ويظهر من خلال نبراتها الغضب، فينزل مهرولًا ليعرف ماذا تريد أمه، فيرى زعتر يقص عليها ما حدث في بيت علام، فيقول له: "ألم أخبرك أن تتخلى عن هذه العادة السيئة؟ لا تنقل كل كلمة تراها أو تسمعها".

كانت الأم غاضبة من وهدان، فردت عليه وهي تنهره:

"وهدان، زعتر مثل الذراع من جسمك، زعتر صمام الأمان لك وإصبعك على زناد سلاحك، وهو يفعل هذا من حبه وخوفه عليك وبتعليمات مني".

وهدان ينظر إلى أمه، فأشارت إلى زعتر بالانصراف فأنصرف، وقالت: "ما بك يا وهدان؟ لقد كنت منتظرة أن تقص عليَّ ما دار بينك وبين علام حتى أعرف ما يدبر له، ولكنك يا وهدان لم تخبرني فأخبرني زعتر بما حدث".

يرد وهدان على أمه وفي صوته بعض الحدة:

"لكن يا أمي أنا لست صغيرًا حتى أحتاج لمن يحميني".

تنظر إليه قائلة:

"يا وهدان، الكل يريد الحماية، والذي يقول إنه لا يخاف هو أكثر واحد لا يشعر بالأمان"، فيقول لها وهدان: "يا أمي، هناك شيء مهم، الحرب اشتعلت".

فترد قائلة: "إن شاء الله سيحدث كل خير"، وما لبث أن انتهت من الحوار حتى دخل زعتر وهو يقول: "سيدي وهدان، خالد ينتظرك بالمندرة، هل ستخرج إليه أم أخبره بأنك متعب؟"

وهدان: "لا، أخبره بأنني قادم إليه".

فينزل وهدان لمقابلة خالد فينظر إلى خالد ليرى حزنًا شديدًا على وجهه وغضب ونيران متأججة في عينيه، فيقول له: "خيرًا؟ ماذا حدث يا خالد؟ هل أصاب أحدًا مكروه؟".

خالد وعيناه قد اغرورقت بالدمع: "بل أصاب البلدة كلها مكروه".

وهدان: "ماذا هناك؟".

خالد: "إن الناس غير راضية عنك، وإنهم يشككون في قدرتك على تولي مهمة العمدة، وكأن هناك من يغذيهم بهذا الكلام".

فيقبض وهدان على عصاه بشدة ويجلس على الكرسي ويضع رأسه على مقدمة عصاه ناظرًا إلى الأرض وهو يقول: "هل هذا صحيح يا خالد؟".

خالد: "نعم أكيد، والناس تسخر منك وأنت صديقي ولا أتحمل أن يخطئ أحد في حقك وأنا موجود، و يا وهدان، اعلم أن هذا خطر شديد على الكفر كله".

وهدان: "إن شاء الله سيأتي يوم ويعلم الناس أنني دائمًا أسعى في صالحهم وصالح الكفر، وينكشف الحاقدون الذين يشعلون نيران الحقد والكره في نفوس الناس ".

خالد: "آمين يا وهدان، والان أتركك لتستريح".

وهدان: "ليس هناك راحة بعد اليوم يا خالد".

انصرف خالد إلى بيته وصعد وهدان إلى غرفته وترك خالد بيت وهدان وعيناه بالحزن والألم مملوءتان لِما سمعه من خالد، وترك خالد بيت وهدان وسار في الشارع ورأسه بالأفكار مثقل، وأقدامه تكاد لا تحمله، وحتى من يناديه في الشارع يكاد لا يسمعه، فتنظر إليه الناس متسائلين: "ما بال خالد اليوم ليس كعادته؟ ربما المانع خير"، ويسير حتى يصل إلى بيته فيطرق الباب طرقات بطيئة فتفتح والدته الباب، فيلقي عليها السلام فترد عليه وتسأله: "ما بك يا ولدي؟ أرى الألم والتعب ظاهرين عليك بدرجة كبيرة"، فيرد عليها مطَمْئِنًا إياها: "لا تقلقي يا أمي، أنا بخير، ولكن بي بعض التعب، سأستريح قليلًا وإن شاء الله سأكون بخير"، فتنظر إليه

والدته بكل حب وحنان وهي تقول له: "تفضل يا ولدي، أزال الله همك وقلقك".

فيصعد خالد إلى غرفته ويرتمي على السرير، ولكن الأفكار والحيرة تقلبه يمينًا ويسارًا، والنوم لا يريد أن يقترب منه، فيجلس وينام، وحاول مرارًا وتكرارًا، ولكن الأفكار تمنع النوم أن يقترب من عينيه، فقام وجلس في الغرفة عسى أن يهدأ قليلًا، ولكن ما زالت حالته كما هي وهو يقول لنفسه: "ماذا أفعل؟".

فقال: "سأقوم لأتوضأ وأصلي"، فقام وتوضأ وصلى ثم ذهب إلى السرير وارتمى عليه وحاول النوم، ولكن ما زال القلق يسيطر عليه، ثم قرر الخروج من المنزل، فخرج وسار في الطريق ذاهبًا إلى مقهى القرية، وجلس عليه وأخذ يسمع الأخبار في الراديو الموجود بالمقهى، ولكن الأخبار كما هي، ليس هناك جديد، فعرف خالد من داخله أنه لا بد أن نرضى بالأمر الواقع، فجلس على المقهى وأخذ يتحدث مع الناس عن أحوال البلد، وإن شاء الله سوف يأتي يوم تنكشف فيه الحقائق كلها، وأخذ الناس يتطرقون من موضوع إلى آخر، حتى موضوع الكفر، فتقول الناس: "الشيخ أحمد -عليه رحمة الله- كان رجلًا طيبًا يحب الجميع ويعامل الناس باللين والطيبة، ونتمنى أن يكون وهدان مثله في تعامله مع الناس، فيرد خالد: "إن وهدان شخصية طيبة ويحب الناس جميعًا، ولكن لا بد أن تساعدوه وتقفوا معه وألا تسمعوا لكلام المغرضين والحاقدين الذين لا يريدون صالح الكفر، ولكن يريدونه خرابًا ودمارًا، فكونوا في جانب وهدان ولا تكونوا في جانب الحاقدين، وأنتم على علم أن علام في الجانب الآخر ينفث سمه في كل المناطق ويشكك في قدرة وهدان على السيطرة على البلد".

عندما علم علام بتلك الأحداث وما يقال عن وهدان في الكفر قال تلك هي الفرصة، ففكر بفكرة ولكنها خطرة جدًّا، فقد اتصل بأحد المجرمين الخطرين الذين يشتهرون بالقتل والسرقة وطلب منه مقابلته خارج الكفر حتى لا يشاهده أحد، وتحت ظلام الليل وغياب القمر وبين الحقول جاء بيومي لمقابلة علام وتحدث معه وقال له:

"أريدك في مأمورية لو نفذتها ستكون لك هدية كبيرة وتكف عن السرقة والقتل يا بيومي، وربما تكون غفيرًا خصوصيًّا لي بعد ذلك أو حتى شيخ غفر".

يقترب بيومي من علام واللهفة تملأ وجهه وهو يقول له: "تحت أمرك يا كبير، ولكن ما المهمة التي تريد تنفيذها؟"، علام يتلفت يمينًا ويسارًا ويقول: "المهم أن تستطيع تنفيذها، الخطأ فيها قد يودي بحياتنا نحن الاثنين".

يقترب بيومي ويهمس:

"المهم يا كبير ما هي؟ من الوضح أنها مهمة صعبة جدًّا".

علام ينظر يمينًا ويسارًا وكأن هناك من يتجسس عليه ويقول: "تقتل وهدان".

بيومي ينظر إلى علام بذعر وخوف: "تريدني أن قتل العمدة وهدان ابن مريم؟ لو علمت مريم ستكون أيامنا سوداء".

علام: "أنا أعلم ذلك، ولكن عليك التنفيذ بحذر، وبعد التنفيذ تختفي لفترة ولا تظهر حتى أرسل إليك".

بيومي متسائلًا: "ومتى تريدني أن أنفذ الخطة؟".

علام بلهفة: "غدًا، غدًا سوف نذهب إلى بيت محمد الجزار لخطبة ابنته إلى وهدان مع أذان العصر، وسوف نرجع بعد العشاء،

وسوف نسلك الطريق الخلفي لأنه الأقرب إلى البيت، والطريق الخلفي يمر وسط الحقول، وأنت تنتظرنا بين الحقول وتطلق النار على وهدان وتختفي، ولكن إياك أن تنسى الميعاد أو تفشل في التنفيذ، سأقتلك أنا بيدي".

يرد بيومي متفاخرًا بنفسه:

"عيب يا كبير، زناد بيومي ما خاب أبدًا".

علام ينظر إليه قائلًا: "كفانا الله شرك".

وانتهت المقابلة.

أشرق النهار بهدوئه والسماء ملبدة بالغيوم وكأنها تنذر بحدوث أعاصير وكوارث، واليوم غريب أحواله وكأنه نذير خطر وإنذار يدق على باب وهدان، ولكن ما يريده القدر سوف يكون، ولا أحد يستطيع منع المكتوب، وجاء ميعاد الذهاب والكل تأهب واستعد، وحضر علام وارتدى زعتر سلاحه وسار الجميع حتى وصلوا إلى بيت محمد الجزار، فطرقوا الباب ففتحوا لهم، ودخلوا وقدموا لهم واجب الضيافة وحضر الجميع ولكن مريم كانت قلقلة جدًّا، وشاهد زعتر قلقها، ولكن لم يستطع أن يسألها، وكأن قلبها يحدِّثها أن هناك مكروهًا سوف يحدث.

وتحدث الجميع بشأن الزواج، ورحب الأب، ولكن قال: "نسأل العروسة"، وسألوها ولكنها قالت: "أريد أن اسأل وهدان سؤالًا"، فنظرت إليها مريم نظرة حادة، فأمسك وهدان يدها ضاغطًا عليها وكأنه يطلب منها الانتظار والتريث قليلًا، وقال: "تفضلي اسألي ما تشائين، سأجيب عن كل أسئلتك".

نجلاء: "بل هو سؤال واحد، هل لك يد بمقتل كمال؟".

وقبل أن يجيب وهدان هبت مريم غاضبة وهي تقول:

"محمد يا جزار، ما قصد ابنتك؟ هل جئنا نخطب أم جئنا لكي يتحقق معنا؟ وهذا الموضوع انتهى وغُلقت أبوابه تمامًا ولا أحد يتحدث فيه مرة أخرى".

محمد الجزار ينظر إلى غضب مريم ووداعة وهدان، وينظر إلى نجلاء فيقول لها: "يا بنيتي، هذا الموضوع قد انتهى".

فينظر وهدان إليها بشوق جارف وهو يقول: "ولكنني سأجيب عن سؤالها"، فتبتسم نجلاء ابتسامة خفيفة، فيقول لها: "يدي بريئة من دم كمال؛ لأن أبي علمني كيف أحب الناس وأتعامل معهم، ولم يزرع فيَّ بذور الشر والقتل".

فتبتسم نجلاء ويبتسم الحاج محمد من كلام وهدان، ولكن علامًا يبتسم ابتسامة صفراء.

توافق نجلاء على الخطوبة وتُقرأ الفاتحة، وتعم الفرحة أركان المكان.

جلس الجميع حتى اقتربت صلاة العشاء، فوقف علام قائلًا: "نستأذن لأن صلاة العشاء قد اقتربت، نريد أن نلحقها في المسجد"، وأشار علام: "إننا سوف نسير من الطريق الخلفي لأنه الأقرب إلى المسجد والمنزل، وأفضل وأقصر"، فسار الجميع حتى وصلوا إلى المكان المنشود، فإذا بأعيرة نارية تنطلق من بين الحقول فيسقط وهدان، تفاجأ الجميع بما حدث، وعلام يقول: "الجني قتل وهدان". فتُسمع طلقات الأعيرة في القرية، ونجلاء وأهل بيتها يصيبهم الفزع وهم يقولون: "ربنا يستر"، فخرج أبوها مسرعًا إلى الطريق، فوجدت علامًا ومريم وزعتر، ووهدان قد أصيب والدماء تلطخه، وتسارع الجميع والكل يريد معرفة ما حدث ومن الذي أُصيب، ومن الذي أطلق الأعيرة النارية، ولكن

من أطلق الأعيرة قد اختفى وسط الحقول متسترًا بظلام الليل ولم يستطع أحد معرفته أو مشاهدته، وأخذ زعتر يطلق أعيرة في الحقول، ثم فقام زعتر بحمل وهدان وأسرع به إلى المنزل، وسار الجميع وعينا علام تحمل الفرحة، ولكن علام يتساءل في نفسه: "هل مات أم أنها مجرد إصابة؟"، ووصل الخبر لنجلاء فمكثت حزينة والدموع تنهمر من عينيها وهي تقول لأمها: "ماذا سيقول عني الناس؟ سوف يقولون عروسة نحس"، وترتمي على أريكة بالجوار وتأخذ في البكاء، وأنهار الدموع تنساب منها، وتحاول أمها تهدئتها فتقول لها: "يا بنيتي، كل شيء مكتوب، وكل شيء مقدر، المهم هو أن نطمئن على وهدان، وسوف يرجع أبوكِ ويطمئننا عليه"، وأثناء الحديث يطرق الباب طارق بسرعة، فتفتح نجلاء، فإذا بأخيها الدكتور شريف قد عاد من القاهرة، فينظر إليها ويقول لها: "لماذا أراكِ حزينة ومن المفترض أنها خطبتك اليوم؟"، فتنادي عليه الأم: "تعال يا شريف، لقد حدثت كارثة اليوم"، شريف ناظرًا إلى أمه: "خيرًا؟"، فتنظر إليه بحزن وتقول: "بعد خروج وهدان وأمه من عندنا أطلق عليه شخص أعيرة نارية، ولا نعرف ما حدث، وأبوك هناك"، فيقول شريف: "لا بد أن أذهب لأطمئن على وهدان، وربما يحتاجونني في شيء"، فيذهب مسرعًا إلى دار وهدان فيجد الناس مجتمعة بالمنزل، فيدخل فيشاهده أبوه، فيشير إليه ويأخذه إلى مريم وهو يقول لها: "ابني الدكتور شريف"، فإذا بشريف يقول: "أين وهدان؟ وهل أحضرتم له طبيبًا؟"، فقال أبوه: "وهدان بالداخل وقد عملت له بعض الإسعافات حتى يحضر الطبيب من المركز، ولكن أريدك أن تراه، فيأخذه إلى الداخل ويقوم بمعالجة وهدان وإخراج الرصاصة من كتفه،

ويطلب من أبيه أن يطمئن الجميع ويتركوه لكي يستريح لأنه نزف كثيرًا، فيخرج الأب فتراه مريم فتذهب إليه، فيقول لها: "إنه سليم والإصابة بسيطة، والآن رجاءً اطلبي من الناس أن ينصرفوا حتى نتركه يستريح"، فتصرف مريم الجميع من البيت ويبقى علام وشريف والحاج محمد، فيستأذن شريف وأبوه ويرجعون إلى المنزل، فيطرق الباب فتفتح لهما نجلاء وهي تقول: "ماذا حدث لوهدان؟"، فيرد الأب: "هناك شخص أطلق عليه النار، ولكن الحمد الله إصابة بسيطة، والدكتور شريف فعل اللازم وأخرج الرصاصة"، فيستأذن شريف منهم للصعود لتغيير ملابسه، فيصعد إلى أعلى، وتنظر فردوس إلى زوجها وهي تقول: "ومن الذي أطلق الرصاصة؟ مؤكد شخص من أولاد موسى يريد أخذ ثأر كمال"، فينظر إليها وهو يقول: "وهدان لم يقتل كمال"، نجلاء تبكي بكاء شديدًا وتقول: "إن لم يكن هو القاتل فلماذا يريدون قتله؟"، الأب: "يا بنتي وهدان لم يقتل كمال؛ لأن وهدان ليس الشخص الذي يقتل، وهدان لا يعرف إلا الخير، وإن شاء الله سيظهر كل شيء، والآن دعونا نستريح من هم ذلك اليوم الطويل".

وفي الصباح عندما أشرق ضوء النهار ذهب شريف وأبوه للاطمئنان على جرح وهدان، فيطرقان الباب فيفتح زعتر، ويجدان مريم جالسة، فيقول زعتر بحزن: "يا سيدتي، الدكتور شريف وأبوه"، فترحب بهما وتشكر شريفًا قائلة:

"شكرًا يا ولدي لإنقاذك وهدان".

فيرد شريف: "الشكر الله هذا واجب، ونحن أهل في الأول والآخر، ولكن من الذي أطلق الرصاص؟"

فترد مريم -وهي حزينة على ما أصاب وهدان على الرغم من قوتها وشدة عزيمتها، ولكن نقطة ضعفها الوحيدة هي وهدان -قائلة:
"والله لا أعلم يا ولدي، هناك شخص يريد إيذاء وهدان بأي وسيلة من الوسائل".
فاستأذن شريف لملاقاة وهدان، ودخل هو أبوه على وهدان ثم رجعت مريم فنظرت إلى زعتر، فقدم إليها، فأخبرته أن يذهب إلى مكان الحادث ويبحث جيدًا، مؤكد أنه سيعثر على شيء، وانصرف زعتر وذهب إلى مكان الحادث وأخذ يبحث حتى عثر على ثوب أسود وبعض الطلقات وسط الزرع، فأخذهم إلى مريم وسار حتى وصل إلى المنزل فوجدها جالسة، فقال:
"يا حاجة، لو تسمحين أريدك لحظات".
فاستأذنت ودخلت، فأراها الثوب، والآن هي تعرف الخيط، فقالت لزعتر: "يجب أن تبحث عن شخص غريب يكون قد دخل القرية من الكفور المجاورة ويكون مشهورًا بالقتل؛ لأن من أطلق الرصاصة على وهدان من المسافة البعيدة وفي ظلام الليل لا بد أن يكون محترفًا في إطلاق الرصاص والقتل".
زعتر: "أوامرك يا حاجة".
فتقول مريم لزعتر:
"وتحرَّ الدقة في الأمور، ولا بد أن تعرف من الذي فعل هذا الأمر الخطير".
زعتر: "تمام يا حاجة، وإن شاء الله سوف آتي لك بالخبر اليقين".
وفي هذه الأثناء قدم فرقة من الشرطة إلى دار وهدان واحضروا جميع من حضر الواقعة، علام ومريم، والكل كانت إجابته ثابتة: لم نر أحدًا، لم نشاهد أحدًا، فاستأذنوا لسؤال وهدان، فسمح

لهم الدكتور، فسألوا وهدان: "هل تعرف من أطلق عليك الرصاص؟"، فأجاب: "لم أعرف ولم أرَ أحدًا، وليس هناك عداوة بيني وبين أحد"، فيسأله: "ربما يكون أحدًا من أولاد موسى".

وهدان: "ولمَ أولاد موسى؟"

فيقول السائل: "ربما ظنوا أن لك يدًا بمقتل كمال بعد المشاجرة التي دارت بينكم".

وهدان: "لا أعتقد ذلك، والمشاجرة شيء عادٍ يحدث بين أي اثنين، ولكن لا تؤدي أبدًا إلى القتل"، وينتهي الحديث بإغلاق القضية والقاتل مجهول.

وينطلق زعتر ليسأل أهل البلد عن أي شخص غريب قد دخل القرية، واستمر السؤال هكذا كثيرًا، والأيام أصبحت مظلمة، وأهل الكفر سيطر عليهم الفزع والكل يقول في نفسه: يا ويل من فعلها، سوف يكون جزاءه الموت، وستكون أيام سوداء على أهل الكفر كله، وأصبح الفزع ساكنًا في النفوس، والخوف مكبِّلًا القلوب، ووهدان ما زال بالبيت وحالته غير مستقرة، والتحقيقات ما زالت تبحث عن القاتل ولكن دون جدوى، ليس هناك خبر يقين عن من أطلق الرصاصة، ونجلاء تموت من القلق والفزع، تريد الاطمئنان على وهدان، ولكن من يطمئنها عليه، وأخوها شريف يجيب عن أسئلتها بعفوية، بأنه بحالة جيدة، ولكنها قلقة أيضًا، ولكن كيف والبلدة كلها في مهب الريح والنار تأكل في أهلها؟ فقالت لنفسها: "فاتن هي التي سوف تطمئنني عليه"، فأرسلت إليها مرسالًا لتحضرها إليها، ولما أتت سألتها عن حال وهدان، قالت فاتن باستطراد والابتسامة تغطي وجهها:

"ستموتين من الخوف والقلق عليه، إلى هذه الدرجة شغفتي به؟ وإلى هذه الدرجة كل هذا الحب؟".

نجلاء ترد ساخرة: "أنت سخيفة حقًّا".

تخبرها فاتن بأنها كانت بالأمس عنده، فتطرح نجلاء بلهفة الكثير من الأسئلة بنفس واحد: "هل رأيتِهِ؟ هل تحدثتي إليه؟ كيف حاله؟" فاتن قائلة: "نجلاء، على مهل، وهدان بخير وسألني عنك، ولكنه لا يتحرك؛ لأن الرصاصة أصابت كتفه، وهذه هي أوامر الدكتور شريف أخيكِ، صحيح هو كيف حاله؟".

نجلاء: "بخير ويسلم عليك، المهم أكملي".

فاتن: "والحاجة مريم ستشعل النار في الكفر ولن تترك الحكاية تمر على خير، ربنا يستر، يجب أن أرحل الآن"، فخرجت مسرعة ووصلت إلى منزلها.

ولكن زعترًا ما زال يبحث ويبحث حتى سأل أحد الفلاحين: "ألم تر شخصًا غريبًا قادمًا إلى الكفر؟"، فرد عليه أحد الفلاحين وقال: "يا زعتر، أتعرف بيومي؟"، قال: "ما به بيومي؟ هل خرج من السجن؟"، قال الرجل: "نعم، وأنا قد رأيته ليلًا خارجًا من الكفر والقلق يسيطر، عليه ولكنه لم يراني".

زعتر: "تمام، بيومي، كيف كنت غافلًا عنه وهو أحسن من يضرب نارًا، ولكن من الذي أدخله البلدة؟ بيومي كل شيء عنده له ثمن، ومؤكد هو من أطلق الرصاصة على وهدان"، فذهب إلى الكفر المجاور وأخذ يسأل عن بيومي حتى وصل إلى دار بيومي وقابله، وكانا يعرفان بعضهما، فقابله ورحب به وبدؤوا يتحدثون مع بعضهما حتى جاء الحديث عن كفر أحمد السمنهوري، فضحك بيومي وقال:

"كنت انفذ مهمة هناك منذ أسبوع"، زعتر: "أي مهمة تلك التي رمتك بكفر السمنهوري؟"، بيومي ضاحكًا وهو متكئ إلى الخلف: "قتل العمدة"، فيسأله زعتر: "وهل نفذت المهمة؟"، بيومي: "نفذتها وأطلقت الرصاص عليه، ولكن لا أدري هل مات أم لا"، زعتر: "حسنًا، الآن أتركك، لقد كنت أمر من هنا فقلت لا بد أن أسلم عليك"، ويخرج زعتر وقد كان همه معرفة من أطلق الرصاص، ولكن لم يسأله عن الذي دفعه لفعل ذلك، فتركه واستأذن وأخبره أنه سيأتي لزيارته مرة أخرى، فخرج زعتر وذهب إلى الكفر فرأته مريم من بعيد قادمًا مسرعًا، فدخل من الباب الخلفي وأخبرها بأنه قد عرف من أطلق الرصاص على وهدان.

قال: "بيومي، واحد من الكفر المجاور".

مريم: "وما العداوة التي بينه وبين وهدان؟".

زعتر: "لم أسأله، ولكنه أخبرني أن شخصًا طلب منه أن ينفذ له مهمة، وهي قتل العمدة وهدان".

مريم: "ولم يخبرك من هذا الشخص؟".

زعتر: "لا والله يا كبيرة، وأنا منتظر أوامرك"، وأثناء الحديث قدم خالد ليطمئن على وهدان وأخبره بأنه مسافر لأن إجازته قد انتهت.

وهدان: "تذهب بالسلامة"، فيستأذن خالد وهو يقول لوهدان: "أتركك لتستريح وأذهب لأجهز أغراضي وأستعد للسفر"، وما زالت مريم وزعتر بالغرفة الخلفية يدبرون أمر بيومي، فيقول زعتر: "أوامرك يا كبيرة، هل أقتل بيومي؟ أنا تحت أمرك".

مريم: "بيومي ذيل الثعبان، أنا أريد أن أقطع رأس الثعبان يا زعتر، بيومي لا يفعل شيئًا من نفسه، ولكن هناك من خطط له،

بيومي هذا ما هو إلا إصبع قد ضغط على الزناد، ولكن يا زعتر ارجع إلى الكفر وأخبر بيومي أنك تريده في مهمة، ولكن يجب أن يأتي في الليل بعد الساعة الثانية، وأعلمه أن تلك المهمة ستدر عليه أموالًا كثيرة".

ذهب زعتر وأخبر بيومي بما حدث، ورجع وأخبر الحاجة به، فقالت له: "أنت تنتظره الساعة الثالثة والنصف، لا تقدم دقيقة ولا تؤخر دقيقة، وعندما يصل تقيده وتحضره لي حيًّا".

زعتر: "ولماذا أتأخر عليه؟".

قالت: "حتى يصيبه القلق ولا يظن أننا متلهفون لقدومه، تمام يا زعتر؟".

فيرد زعتر: "تمام" ، وجاء الموعد وذهب بيومي إلى مكان لقاء زعتر في الموعد المحدد، والليل بظلامه يسيطر على المكان، والسكوت يخطف الأذهان، سكوت هائل وهدوء تام، وإذا فجأة بشخص مغطى بالسواد لا يظهر منه شيء ومعه مسدس به كاتم للصوت، فخرج من خلف بيومي وثبته وجعله يلقي بسلاحه، فأخذه منه وقيده بجذع النخلة، واقترب منه والمسدس مصوب نحوه، واطلق عليه رصاصة في كتفه وفي رجله، وأخرج خنجرًا غريب الشكل وقام بذبحه، وقال له: "الكلب حين يعض الذئب يقوم الذئب بافتراس الكلب وقطع رأسه، ولم أسمع في يوم أن الحمام صاد الصقور"، وقام بضربه فقطع عنقه وتركه واختفى، وذهب زعتر في الموعد المحدد فوجد شخصًا مربوطًا بجذع النخلة، ولكنه مقتول قتلة بشعة، تم ذبحه، فنظر إليه فإذا به بيومي قد قُتل، ولكن من الذي قتله؟ فتراجع زعتر مسرعًا وهو يتصبب عرقًا وذهب إلى دار وهدان وطرق الباب، ففتح له، فسأل عن السيدة

مريم، فقيل له بأنها بغرفتها تستريح، فسمعت صوته وخرجت مهرولة إليه: "ما الخبر يا زعتر؟ علمت أن هناك شيئًا خطيرًا"، ثم صرفت الجميع وتحدثت معه فأخبرها أن بيومي قُتل وأنه لم يعرف من الذي قتله، ولم يعرف من الذي استأجره ليقتل وهدان.

مريم: "بيومي قُتل؟؟ كيف؟ ومن الذي قتله؟ مؤكد أنه الذي استأجره لقتل وهدان، اختلفوا على شيء فقام بقتله، انتهى الموضوع وكأنه لم يحدث شيء، غدًا الحكومة سوف تملأ البلدة، المهم، هل شاهدك أحد وأنت هناك؟".

زعتر يرد: "لا لم يراني أحد، بل جئت إلى هنا مباشرة والبلدة خالية تمامًا، ولكن هناك أمرًا أدهشني".

ترد مريم على زعتر: "ماذا أدهشك يا زعتر؟".

زعتر: "بيومي قُتل بنفس الطريقة التي قُتل بها كمال".

مريم ترد على زعتر تريده أن ينهي الحديث:

"إذن فالجني ظهر وقتله، مفهوم؟ ولا تتحدث في الموضوع مرة أخرى، وغدًا سيكون يومًا طويلًا جدًّا، ولا بد أن تجهز كل شيء، والعمدة يجب أن يكون موجودًا غدًا".

زعتر: "ولكن العمدة ما زال مريضًا".

مريم: "سوف أخبره وأجعله يخرج حتى يراه الناس ويعرفون أنه قد شُفي".

* * *

الفصل الثالث

وأكمل الجد كلامه الجميل عن القصة الشائقة وهو يروي لنا القصة ونحن نغوص معها في أعماق الماضي، وبدأ الجد يسرد قصته قائلًا: "وبعد أن مات بيومي والكل في الصباح شاهده مقتولًا وعنقه مقطوعًا، أخذ الناس قطار الذكريات إلى الخلف وتذكروا مقتل كمال، والكل أخذ يهمس ويقول: "نفس الطريقة التي مات بها كمال، إنه الجني الأسود الذي يظهر فيقتل الناس ويشرب دماءهم لكي يعيش وقتًا طويلًا"، ولكن في القرية كلها لا أحد يدري من هو القاتل الحقيقي وراء كل تلك الجرائم، وخرج العمدة ومعه الخفير زعتر، فرأته الناس وقد استرد عافيته.

والضابط يسأله:

"حمدًا لله على السلامة يا عمدة، يا ترى هل عرفت الشخص الذي أطلق عليك الرصاص؟".

العمدة: "إذا كنت قد عرفته لكنت أخبرتك به".

فيرد الضابط:

"مفهوم يا عمدة".

فيطلب وهدان من الضابط أن يذهبوا إلى الدار، فيقول:

"تفضل يا باشا نكمل الكلام بالدوار".

فيوافق الضابط، وسارت القوات إلى دوار العمدة والناس تقول: "مؤكد أن الشخص الغريب هذا هو الذي أطلق النار على العمدة،

ولذلك العمدة هو الذي قتله وتركه حتى تعرف الناس أن من يحاول ويتعدى عليه سيكون جزاؤه مثل هذا".

ولكن علامًا أصابه القلق والفزع لمَّا رأى بيومي بهذا المنظر، فقد خاف أن يكون قد أخبر القاتل بالاتفاق الذي صار بينهما، وأخذ يتوخى الحذر في الكلام، وذهب الجميع إلى دار العمدة لإتمام التحقيق، ولكن كالعادة القديمة، القاتل مجهول.

والسيدة مريم قالت:

"حضرة الضابط، هذا الشخص لا أحد يعرفه في البلدة، وغريب عن دورنا وعن كفرنا، مؤكد أن أحدًا من خارج الكفر هو من قتله وألقاه هنا حتى يبعد الشك عنه".

الضابط:

"كلام معقول يا سيدة مريم، وحمدًا لله على سلامة العمدة مرة أخرى، ونستأذن"، وذهب الجميع تاركين الدار وتحركت القوات.

ولكن علامًا لم يظهر، فسألت مريم زعتر: "أين علام؟".

زعتر: "لم يظهر اليوم أبدًا".

فترد مريم هامسة إلى زعتر: "اذهب إلى علام وأخبره أني أريده على عجل، وأخبره أن الأمر مهم ولا يتحمل التأخير".

ذهب زعتر مسرعًا إلى بيت علام وأخبره بما أراده، فقلق علام جدًّا وارتجف وجبينه تصبب عرقًا، فشاهدته فاتن بتلك الحالة فسألته:

"ما بك يا أبي؟ أهناك شيء؟".

فيرد غاضبًا:

"لا لا"، فتطلب منه فاتن السماح لها بزيارة نجلاء والاطمئنان عليها، فأذن لها فذهبت إلى دار نجلاء وطرقت الباب، ففتح لها

الدكتور شريف واستقبلها، ووقعت عيناه على عينيها، فظل ينظر إليها ونسي أنها لم تدخل، حتى جاءت نجلاء وشاهدتهم، فذهبت إليهم ولمست كتف شريف وهي تقول له: "اتركها تدخل".

فيصيبها الخجل ويحمر وجهها ونجلاء تضحك بصوت مرتفع قليلًا قائلة لشريف:

"يا شريف، اترك قليلًا للوقت القادم". فاحمرت فاتن خجلًا من كلام نجلاء، ثم استأذن شريف فخرج، وأخذت نجلاء تسأل فاتن عن أخبار وهدان: "ألم تشاهديه؟ ألم تتحدثي إليه؟ .... إلخ".

فقالت لها: "اليوم خرج؛ لأن هناك شخصًا مجهولًا وجدوه مقتولًا، ويا سيدة نجلاء اهدئي قليلًا، الرجل قد أصيب إصابة بالغة".

نجلاء: "حين سمعت الخبر مت من الخوف عليه يا فاتن، وهدان طيب على الرغم من الشدة التي يظهرها"، فتضحك فاتن وتقول بسخرية: "هكذا هو الحب".

نجلاء تنظر إلى فاتن قائلة: "كيف حالك مع شريف؟".

فاتن: "شريف (محلك سر) وأنا لا أدري ماذا أعني له، حبيبة أم أخت أم لا شيء؟ اسأليه يا نجلاء وطمئنيني بالله عليك، أنت تعلمين شريف بالنسبة لي ماذا يكون، إنه حياتي التي أعيشها، روحي التي تجري في جسدي، بالله عليك هل رأيت جسدًا من غير روح غير الجسد الميت؟ أنا بدون شريف ميتة".

نجلاء ترد وتطمئنها: "لا تقلقي يا صديقتي، وبمجرد أن تنتهي المشكلة الموجودة في البلدة سأخبر شريف وأجعله يأخذ خطوة إيجابية".

فاتن: "لا تنسي، وأستأذن لأنني قد تأخرت جدًّا على والدي، وأمي كل يوم تسألني ماذا عند نجلاء؟ وأرد الرد المعتاد (لا شيء، نجلاء صديقتي وأطمئن عليها من وقت إلى الآخر يا أمي)".

حالنا غريب، فدائمًا الكل يبحث عن مكسبه الذي يريد أن يحققه، فبجانب مشكلات الكفر التي يعاني منها تجد الحب في القلوب يسكن، على الرغم من كره علام وشره تجد حب نجلاء لوهدان وحب فاتن لشريف، المجتمع مليء بالتناقض في كل الأشياء ولا يستقر على وتيرة واحدة، فلا بد أن يوجد الشر لكي نعرف طريق الخير، ولا بد أن يوجد الكره حتى نعرف طريق الحب، ولا بد أن يوجد الشخص الفاسد حتى نعرف الصالح، هكذا الدنيا، عملة ذات وجهين، لا بد أن ترى الاثنين، لا تستمر على نمط واحد، فإذا وُجد الحزن فاعلم أن هناك فرحًا سيأتي، وإذا وُجد الفرح فهناك حزن قادم.

وفي اليوم التالي ذهب علام لمقابلة مريم، فأخذته وجلسوا في مكتب العمدة وجعلت زعتر على الباب، وأخبرته بألا يدخل أحد عليهم أيًّا كان، حتى لو وهدان نفسه، وتنظر مريم إلى علام، وعلام جبينه يتصبب عرقًا منتظرًا حكم القدر عليه، فسألته مريم:

"يا علام، ألم تعرف من الرجل الغريب الذي وُجد مقتولًا؟ ومن قتله؟".

علام مستغربًا يريد أن يخفي توتره قائلًا: "ومن أين أعرفه أو أعرف من قتله؟ العلم عند الله يا كبيرة".

مريم:

"وهل يخفى عليك شيء يا علام في الكفر؟ الذئاب يا علام لا تحب النور، الذئب يحب العتمة".

علام متفاجئ من هذا الكلام يقول: "وما السبب في هذا الكلام كله؟ ذئاب وقطط وكلاب، أعندك نية عمل مزرعة؟".
مريم ساخرة وضاحكة ضحكة بها غضب وبصوت قوي:
"علام، اسمع، وهدان في كفة وأهل الكفر كلهم في كفة، ومؤكد أن الشخص الغريب الذي قُتل كان له يد في ضرب وهدان، صحيح يا علام؟".
فيرد علام قلقًا يحاول أن يتجنب مريم بنظراتها الحادة:
"وهل أنا منجم لكي أعلم من أطلق الرصاص على وهدان؟ ولو علمت من هو لأحضرته إليك مكبلًا ذليلًا على فعلته".
فتنظر إليه مريم وهي تتأمل ما قاله علام قائلة: "عسى أن يكون كلامك صادقًا يا علام، ولكن اسمع ما أقوله إليك، وهدان العمدة، ومريم القوة، فافهم كلامي يا علام، وأي شخص أيًّا كان سيحاول أو يفكر مجرد تفكير أن يمس وهدان سأمزقه".
فيرد علام:
"فاهم يا سيدتي".
مريم: "لننسى الماضي يا علام ونبدأ صفحة جديدة ،أم لك رأي آخر؟".
يرد علام وهو يريد أن يكسب ثقة مريم:
"الرأي رأيك ونحن معك دائمًا"
فتقف مريم قائلة: "انتهى الكلام يا علام وانتهت المقابلة وأستأذن أنا".
خرجت مريم ووقف علام يتنفس الصعداء، ثم دخل عليه زعتر وقال له: "أي أوامر حضرتك؟"، قال علام بغضب: "لا، أنا ذاهب"، فخرج الجميع وأغلق زعتر المكتب، ثم جاء وهدان وسأل

على والدته فأخبره زعتر أنها بغرفتها، فذهب إليها وحدثها عن أحوال الكفر وما يدور فيه ليأخذ مشورتها، وأن الناس في الكفر قلقة والكل يحكي عن موضوع الجني، فتحدث وهدان مع امه: "يا أمي، نريد للناس أن تفرح، أنا قررت أن أقيم الزفاف الأسبوع القادم، لنجعل الناس تنسى ما حصل".

الأم متفائلة:

"معك حق يا وهدان، اذهب إلى أهل عروسك وتحدث معهم في شؤون الزفاف".

فسار وهدان ومعه زعتر وشاهدتهم نجلاء من شرفة البيت، فنزلت على السلم مهرولة واختبأت خلف ستارة حتى تم فتح الباب لهم واستقبلهم والدها، حتى تعرف ما الخبر الذي يزفه وهدان، فأخبره أنه يريد أن ينهي مراسم زواجه في أقرب وقت، وأن الزفاف سيكون الأسبوع القادم حتى يزيلوا ستائر الحزن التي رفرفت على الكفر ويدخلوا الفرح عليهم، وحتى ينسوا ما حصل، ففرحت نجلاء فرحًا شديدًا وشاهدتها والدتها فقالت لها:

"كفاك اللهفة التي تظهر عليك، ملهوفة جدًّا على الزواج وعلى فارسك".

ترد نجلاء ضاحكة: "فارس وسيد الفرسان يا أمي"، ويضحك الجميع ويتم الاستعداد لزفاف وهدان عمدة الكفر.

ولكن كأن الكفر كُتب عليه أن يظل الحزن مخيمًا عليه لا يفارقه أبدًا، فبعد أن أنهى وهدان الاتفاق على موعد الزفاف ذهب إلى البيت، فوجد شخصًا ينتظره قد أحضر إليه إشارة من المركز بصفته العمدة، ففتح ذلك الخطاب فأصابه الذهول ودارت به الأرض وكاد أن يسقط، فصرخ زعتر (سيدي وهدان) وقام

بمسكه، فدخلت مريم مسرعة وهي تتساءل ماذا حدث، فأخبرها بما يحتويه الخطاب، بأن خالدًا قد أصيب بحادث سيارة وقد توفي، وهذه إشارة من المركز بذلك، ويجب أن أذهب لاستلام جثمانه لأنني أنا العمدة، فأخبرت مريم من أحضر الإشارة بأن العمدة غدًا سيأتي إلى المركز لاستلام الجثمان، فانصرف الرجل وقالت مريم: "وهدان، لماذا تظهر ضعيفًا دائمًا؟ كن قويًّا عند المصيبة".

وعلم أهل الكفر بما أصاب خالدًا، فتجمعوا جميعًا عند دار العمدة في الصباح وذهبوا معه لاستلام جثمان خالد ليودعوه مثواه الأخير، وخرج أهل الكفر جميعهم نساء وأطفالًا وشبابًا ورجالًا وشيوخًا لتشييع جثمان خالد، وأقام وهدان له العزاء في داره، وتمر أيام العزاء وكأن الحزن قد كُتب عليه أن يبقى في ذلك الكفر، وتأجل زفاف وهدان ونجلاء، ومكث وهدان في بيته حزينًا وأشعل سيجارة وأحلامه وأفكاره المتصارعة تتسلق مع أدخنة سيجارته التي تملأ الغرفة، وينظر إلى سطح الغرفة بحزن وألم ولا يدري ماذا يفعل في كل هذا، موت خالد من جانب، ومشكلات الكفر من جانب آخر، ويتساءل في نفسه: "لماذا كل تلك المشكلات تدنو مني؟ ما الخطأ الذي ارتكبته؟ لماذا قدري كل تلك المشكلات؟"، ثم يعود ويستغفر الله العظيم ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وفي تلك الأثناء يطرق باب الغرفة فيفيق من تفكيره ويفتح الباب، فإذا بأمه تنظر إليه وتقول: "ما بك يا وهدان؟ أرى طيور الحزن تقف فوق عمامتك، يا وهدان الدنيا كلها مليئة بالمشكلات، ولا بد أن نتصدى لها وألا نهرب منها، ويجب أن تكون جَلِدًا قويًّا أمام عثرات الزمن حتى لا يشعر الناس

بضعفك، وارمِ الماضي بكل ما تحويه سطوره وراء ظهرك، وانظر إلى الأمام يا ولدي".

ولم يكن وهدان وحده هو الحزين؛ فأهل الكفر قد حزنوا حزنًا شديدًا على خالد، ولكن مصيبة الموت تبدأ كبيرة وتنتهي صغيرة، ثم يبقى لمن مات ذكره فقط، وبعد مرور الأربعين تذهب مريم إلى وهدان وتخبره بأنه لا بد أن يتمم زواجه من نجلاء حتى يعم الفرح وتُكسر تميمة الحزن التي وُضعت في الكفر، وتم الاتفاق أن الخميس القادم هو موعد زفاف العمدة وهدان، وبدأت الناس تفكر في الزفاف، أهل الكفر طيبون وبسطاء على الرغم من فقرهم، فإنهم يحبون بعضهم البعض، فتم التجهيز لزفاف العمدة، ولكن علامًا رأس الثعبان لن يهدأ له بال أبدًا، ودائمًا يسعى في الشر، وينشر نار سمه في كل مكان دون أن يعلم أحد، فتقابل مع سيد موسى وهو يلقى إليه بالكلام قائلًا:

"كيف حالك يا سيد في تلك الأيام؟".

سيد:

"نحمد الله كثيرًا على كل شيء يا حاج علام، أنا في أحسن صحة، والكفر كله اليوم في فرح كبير".

يرمي علام بالكلمات: "رحم الله كمال صاحبك وابن عمك".

فيرد سيد ويقول: "ما الذي ذكرك بالأموات في زمن الأفراح؟ دع الأموات في حالهم ورحم الله الجميع يا حاج، وما بك قلبتها على وجهها الداكن؟ لتجعلها على وجهها الأبيض، اليوم زفاف العمدة والكل سعيد، وأنت ترى الفرحة تهز الكفر كله، فأهل القرية تجمعهم الفرحة ويجمعهم الحزن، والكبير عندهم له تقديره واحترامه حتى من عدوه".

ونجلاء في منزلها تستعد للعرس ومعها فاتن صديقتها.
فإذا بنجلاء تهمس لفاتن: "إن شاء الله سنفرح بك أنت وشريف في القريب العاجل".
فاتن تعلوها نبرة الألم: "لا يبدو ذلك أبدًا، هل تحدثت مع شريف في الأمر؟".
نجلاء: "اعذريني لقد نسيت، لكني سأحدثه حالًا، عن إذنك".
نجلاء تذهب وترسل أحد الأشخاص إلى أخيها شريف، فيحضر ويدخل من الباب الآخر، فتجلس وتحدثه وهو قَلِق.
نجلاء: "ما بك قلقًا؟ لا تخف، كل شيء بخير، ولكني أردت أن أحدثك في أمر مهم".
يرد شريف: "ما هو الأمر المهم يا عروسة؟".
نجلاء مبتسمة: "يا شريف أنت تعلم فاتن كم هي تحبك، وأنت لا تعير الأمر أي اهتمام".
يجلس شريف وبصوت يسيطر عليه الحزن:" يا نجلاء أنا على علم بما تكنه فاتن لي من مشاعر، وأنا أتمنى اليوم الذي يجمعنا فيه معًا بيت صغير أنا وهي، ولكن هل والدها يوافق على زواجي منها؟".
نجلاء مستغربة من كلام شريف: "وما المانع في زواجك من فاتن؟".
شريف ضاحكًا ضحكة اليأس: "الموانع كثيرة ولكن أنت لم تنتبهي لها".
نجلاء ترد على شريف موضحه له أن كل الطرق أمامه مفتوحة للتقدم لخطبة فاتن وهي تقول له:
"يا شريف، أنا سأتزوج وهدان، يعني كبير الكفر، يعني العمدة".
شريف يحاول أن يوضح شيئًا مهمًّا لنجلاء كانت غافلة عنه قائلًا:

"يا نجلاء هم قد يتزوجون منا، ولكن هل يوافقون أن يزوجونا بناتهم؟".
نجلاء تتساءل: "ولماذا يرفضون؟ أنت دكتور ولك مركزك ومستقبلك والكل يتمنى زوجًا مثلك لابنته".
شريف: بعد زفافك إن شاء الله سوف أحدث أبي بهذا الموضوع ثم آخذه ونذهب إلى الحاج علام وسنرى ما سيحدث".
فتخرج نجلاء والفرحة على وجهها وتذهب إلى فاتن التي يكاد القلق يفترسها، فإذا رأت نجلاء قادمة قامت مسرعة لكي تطمئن على ما دار من حديث، فأخبرتها بأنه بعد انتهاء الزفاف سوف يذهب ويتحدث إلى أبيك، ولكنه قلق من أن يرفضه والدها.
فاتن:
"ولماذا يرفضه؟ شريف شخصية محترمة، ودكتور ناجح وله مركزه".
نجلاء: "نفس الكلام الذي قد وجهته له، والمهم أن كل شيء سيكون على خير، والآن اطمئني وتعالي نكمل التجهيزات".
وتمر أيام قلائل ويأتي ميعاد الزفاف العمدة، ويبدأ الزفاف وتحضر العروس وتبدأ الفرحة العارمة بإطلاق الأعيرة النارية، ففكر علام فكرة جهنمية، وهي أنه وسط إطلاق الرصاص الكثير يُطلق رصاصة على وهدان في غفلة من الناس، وتعد رصاصة خطأ وينفذ مراده الذي يخطط له منذ فترة طويلة، ولكن مريم كانت أذكى وأدهى منه، حيث طلبت من زعتر ألا يفارق علامًا وأن تظل عيناه دائمًا عليه لا يغفل عنه أبدًا، فشاهد علام أن زعتر يراقبه ولا يرفع عينيه عنه حتى عندما أخرج مسدسه ليطلق أعيرة من باب الفرحة، أمسك زعتر بندقيته وصوبها نحو علام،

فشاهد علام ذلك فأطلق الأعيرة إلى أعلى وهو يقول في نفسه: "كل هذا من تدبير الحية مريم، والحمد الله أن بيومي مات ولم يقل شيئًا، وكان لا بد أن يموت لأنه غبي، لعب على أرض ليست بأرضه، فكان لا بد أن يموت".

وبدأ الجميع يفرح والفرحة تعم البلد والأركان حتى مطلع الفجر، وانتهى الزفاف وكلٌّ ذهب إلى بيته بعد ليلة جميلة، وذهب وهدان وزوجته لغرفتهم ليحتفلوا معًا بحبهم وعرسهم، وفي الصباح الباكر حضر أهل العروسة للصباحية، وباركوا لهما، وكانت السعادة تغمر المكان وتغمر الكفر من أوله إلى آخره، فتلك الفرحة خففت بعض الشيء من الحزن الذي أصاب الكفر، وعلى الرغم من الفرحة التي تمت، ولكن ما زالت القلوب واهنة بالحزن، وأعين الشر التي ترصد وهدان ما زالت تفكر في المكر والخديعة، وما زالت تفكر كيف تستولي على أرض وهدان، وكيف يكون هو العمدة، فبعد فشل خطته مع بيومي أراد تنفيذ خطة أخرى كان قد جلس طويلًا يدبر لها بمكر، فانتظر حتى تزرع الناس الأرض، كان محصول القمح اهم محصول عند الناس كلها، وقال بأنه لا بد من حرق الأرض بما عليها، ولكن كيف سينفذ خطته؟ فجلس يفكر ويفكر، ثم جلب فأرًا وقام بعقد كرة من الفتل في ذيله وانتظر حتى منتصف الليل حتى عم الهدوء، وذهب خارج بيته واشعل النيران وقام بإطلاق الفأر، فأخذ الفأر يجري يمينًا ويسارًا من النار المشتعلة بذيله، وبدأ الاشتعال حتى أضاءت النيران البلدة كلها، فخرج الجميع هلعين وحاولوا إطفاء النيران المشتعلة وإخمادها، بعد أيام فرح قدمت أيام فقر وجوع وبؤس على الكفر كله، وعلام في بيته يتلذذ بفعلته وهو يقول في نفسه: "لنر كيف

سيحل العمدة تلك المشكلة "، أهل الكفر أصابتهم التعاسة والمحصول أصابه الحريق.
ولكن ذهبت مريم بدهاء إلى وهدان وقالت له: "وهدان، اسمع هذا الكلام جيدًا، إياك أن تظهر ضعيفًا أمام الناس، كن قويًّا أمامهم؛ لأن الناس إذا شاهدوا الكبير منهزمًا يفقدون الثقة فيه، فحتى إذا كان بداخلك خنجر يمزق في أحشائك لا تُظهر ألمك وضعفك، أظهر لهم أنك قوي".
فسمع وهدان كلام أمه وخرج إلى الناس، وتفاجأ علام أن وهدان خرج وكأنه لم يهزه شيء، فقال وهدان للناس: "إن كل شيء وارد حدوثه، والمحصول الذي أصابه الحريق كأنه لم يُزرع، وكل شخص من أهل الكفر سيأخذ ما يكفيه مثل كل عام، وأنا متكفل بهذا وسأدبر الأمر لكم، والمهم الآن هو أن نذهب لنرى الأرض، وبدءًا من الغد سيعمل الجميع في الأرض ويجهزونها وكأن شيئًا لم يحدث".
فذهب الناس بعد أن سمعوا كلام وهدان، ونزلوا جميعًا إلى الأرض وبدؤوا العمل، وأُمر زعتر أن يوزع الغلال الموجودة في المخزن عنده على أهل الكفر، وقام العمدة بشراء غلال من الكفور المجاورة وأخذ يوزيعها، فأصاب أهل الكفر الفرحة وازداد حبهم لوهدان، ولكن وهدان ما زال يفكر من الذي حرق الأرض، ويسأل أمه: "يا أمي من له مصلحة في حرق المحصول؟".
مريم: ما زلت صغيرًا يا وهدان يا ولدي، تريد أن تعرف من الذي فعلها؟".
وهدان يرد على أمه بتلهف لكشف الشخص الذي فعلها:
"أتمنى يا أمي أن أعرفه"، فتقول: "وماذا بعد أن تعرفه؟".

وهدان وهو غاضب ومنفعل: "سوف أجعله عبرة لأهل الكفر كلهم ثم أقتله".

فترد مريم وتريد أن تهدئ من اندفاع وهدان قائلة:

"لا يا وهدان، هذا ما يريده، أن تعطيه شيئًا من الاهتمام، ولكن تجاهله ليزيد ذلك من غيظه ويزيد من حماقته، مما سيجعله يخطئ ويكشف عن نفسه".

فيسأل وهدان واللهفة تقفز من عينيه:

"من يا أمي؟".

فتخبره بمن فعلها قائلة: "علام يا ولدي هو من حرق الأرض".

وهدان يتفاجأ وتكاد قدماه لا تحملانه من هول الخبر الذي سمعه وهو يقول:

"عمي علام هو الذي أحرق المحصول؟؟ كيف؟!".

فيدخل زعتر ويخبره بأنه وجد بقايا أشياء استخدمها علام في حرق الأرض، بعض الأقمشة والبنزين، ولكن وهدان يقول: "هذا ليس بدليل كاف، وإذا كان عمي هو من حرق المحصول إذًا فهو من قتل كمال والشخص الآخر".

فترد الأم على وهدان: "هناك دليل آخر".

وهدان: "ما هو؟".

"هناك من رأى علامًا".

وهدان: "من؟".

مريم: "زعتر".

وهدان: "ولماذا لم تمنعه؟".

زعتر: "يا سيدي لقد كنت ذاهبًا لكي أقضي طلبًا للسيدة مريم، وأثناء عودتي شاهدت النيران مندلعة، وكانت البداية بالقرب من

دار علام، فذهبت مسرعًا فوجدته مرتجفًا ومسرعًا نحو بيته ولكنه لم يرني، فجئت مسرعًا لأخبر السيدة مريم بما حدث".

مريم: "هل اقتنعت بهذا؟ أريد أن أوضح لك حقيقة غائبة عنك".

وهدان: "وماهي تلك الحقيقة يا أمي؟".

مريم: "علام خبيث، هو يريدك أن تظهر ضعيفًا ليسحب بساط العمودية من تحت قدميك ويكون هو العمدة، ولكن الكلام هذا يا وهدان لا تحدث به أحدًا، ولا تعاتب علامًا، اتركه كأنك لم تعرف شيئًا". وهدان أصابته الحيرة والتعجب وأرسل في طلب عمه وجلس في دار مكتب العمودية، وتدور في رأسه الكثير من الأفكار والأسئلة: هل يسمع كلام والدته ولا يخبر علام؟ أم يخبره ويضعه أمام الأمر الواقع؟ وظل في تلك الحيرة التي أخذته في دوامتها حتى اهتدى إلى فكرة تخرجه من الحيرة، ولم يلبث حتى دخل عمه علام فجلس الاثنان، ولكن عيني علام كانت تحمل الكثير من الشر والحقد على وهدان، وتعكس ما يكنه لوهدان وأمه، فإذا بعلام يحدث وهدان عن المشكلة التي عمت البلد والمحصول الذي كان ينتظره الناس كل عام لتسدد ما عليها من ديون ومصاريف، الكل كان يعتمد على هذا المحصول، فإذا بوهدان يرد بهدوء:

"العمل عمل ربنا يا عمي، والله لقد فكرت أن أتنازل عن العمودية إلى أي شخص، لقد تعبت منها، العمودية هم ووجع قلب". فعندما سمع علام هذا الكلام ظهر على وجهه السرور والفرح، وأخذت الابتسامة ترفرف على وجهه الكئيب وهو يتحدث بتلهف هل ما يقوله وهدان حقيقة؟ أم مجرد حكايات من خيال؟ فيرد علام:

"يا وهدان هل هذا الكلام حقيقي؟ وإذا كان حقيقيًّا فأنت سوف ترتكب خطأ كبيرًا، العمودية والمنصب والهيبة كل هذا تتركه؟".

ووهدان بدأ بتنفيذ الخطة والفكرة التي اتفق عليها هو ومريم، حيث قالت له: "يا وهدان الثعبان لا تغلبه إلا حية"، وسارت الفكرة كما اتفقا.

ولكن وهدان أخبر عمه بأنه متعب ويفضل أن يترك له العمودية، فهو أولى بها، "ولكن هناك شرطًا يا عمي".

علام فرح فرحًا شديدًا وكادت الفرحة تفضح تصرفاته، فتساءل بلهفة شديدة:

"ما هو الشرط؟"، فنظر إليه وهدان وإلى لهفته وقال: "أريد معرفة من حرق الأرض".

علام: "وكيف نعرفه؟".

وهدان: "فكر يا عمي، أنت لك مداخل كثيرة، ومؤكد لو بحثت ستصل لمن فعلها".

الشر الكامن في قلب علام والحقد الرابط دائمًا يسعى إلى الوصول لما أراد علام تحقيقه، وهو يقول لنفسه: "أفضل فرصة لكي أكسر مريم وأكون الكبير والعمدة، وبعد ذلك سأطردها هي وابنها المغفل خارج البلد".

فالحقد في النفوس لا يتغير، والكره الكامن يحول الحياة إلى لونها الأسود، ومعها تسود القلوب، فعلام يفكر كيف يدل على حارق الأرض وهو من فعلها، وإذا أخبر وهدان بذلك كيف سيكون العمدة؟ أخذت الأفكار في رأسه تتحارب وتتنازع حتى هداه شيطانه إلى فكرة إذا فعلها سوف تشتعل نيران قد أطفأتها أمطار الزمن، ويكشف عن ماضٍ سترته أنقاض الأيام، ولا أحد يفكر في

أن يفتش في بئر الماضي؛ لأنها مليئة بالشر والخراب على أهل الكفر كلهم صغيرهم وكبيرهم، ولكن علامًا يقول لنفسه: "حتى تصل إلى مبتغاك هناك أشياء لا بد أن تدوسها أقدامك، فانظر أمامك ولا تنظر إلى ما تدوسه أقدامك، حتى لو كان أعز عزيز لك".
ثم أردف: "ولكن يا علام كيف تنفذ هذه الفكرة؟ وكيف تقنعهم؟"، فأرسل في طلب سيد موسى كبير أولاد موسى وأن يحضر في أمر عاجل جدًّا، فحضر سيد وجلس يتحدث مع علام، فيبدأ علام بكلامه المعسول وأساليب الثعابين قائلًا: "رحم الله من رحلوا يا سيد، والله يا سيد جدك كان رجلًا، وكان سيد الكفر كله هو وأبوك، ولكن ماذا نفعل؟ أخي أحمد قد أخذ منكم العمودية واستولى على كثير من أرضكم، والأرض الباقية احترقت"، فغضب سيد وقال: "ما فائدة هذا الكلام؟ أشياء مر عليها زمن، والدنيا يوم لك ويوم عليك".
علام: "لماذا غضبت من الكلام؟ فماذا تفعل إذا فطنت إلى الشيء الذي يبحث عنه أبوك إلى وقتنا هذا؟ ومؤكد قد أخبرك به"، فينظر سيد إلى علام بعد أن يعتدل في جلسته وهو يقول: "أنت تعرف من قتل جدي وابن عمي كمال؟"، فإذا بعلام يرد وتعلوه ابتسامة يخفيها: "أنا أعرف من قتل جدك، ولكن قاتل كمال لا أدري من هو"، فيقف سيد منفعلًا ويطلب من علام أن يخبره، وهنا بدأت خطة علام في النجاح رويدًا رويدًا، وسيد مُصر على معرفة من قتل جده ليذهب ويخبر أباه الذي بلغ من الكبر عتيًّا، وأصابه المرض ويتمنى في كينونة نفسه أن يعرف من قتل أباه، وزاد سيد في إصراره على معرفة القاتل حتى يعود للبيت ليخبر أبيا

ويُرجع لعائلته هيبتهم وسط البلد مرة أخرى، علام بكل برود وهدوء تام: "أنت تريد أن تعرف من قتل جدك؟".

سيد" "أكيد".

علام: "ولكن أنا بعيد عن هذا الموضوع أيًّا كان القاتل، هل تعدني بذلك؟"، فيقدم سيد الوعد لعلام فيخبره علام أن من قتل جده هو أخوه أحمد وزوجته مريم، "وإذا أردت الدليل انتظرني عند الساقية القديمة، وهناك سوف أقدم لك الدليل الكامل واعتراف مريم بقتل جدك وأنت بعد ذلك تصرف"، وافق سيد وتجهز للذهاب، ولكن زعترًا كان قد جلس أسفل نافذة علام فسمع الكلام كله ونقل الموضوع إلى مريم، فقالت: "علام شيطان يريد أن يُبرئ نفسه من القتل وهو من قتل جد سيد وألقاه في الساقية القديمة في أرضنا"، فتنظر مريم إلى زعتر وتخبره بألا يخبر هذا الكلام لأحد، ولا حتى وهدان، ولم ينته الكلام فإذا بالباب يطرق فيفتحونه، فإذا بعلام يسأل عن وهدان، فتخبره مريم أنه بالمندرة، فدخل إليه وقال له: "أبشر، لقد وجدت من حرق المحصول"، فتبسم وهدان وقال من؟ فإذا بعلام يرد مبتسمًا: "في الليل عند الساقية القديمة، تعال وسوف تجد الفاعل وستسمع منه كل شيء"، فيذهب سيد لمعرفة من قتل جده، ويذهب علام فيقابله ويخبره بأن يشعل نارًا لأن المكان مخيف وربما يكون هناك ذئب أو شيء يؤذيهم، فأشعل سيد النيران، وكان وهدان قد وصل ومعه زعتر ومريم، فإذا بعلام يصيح: "لماذا يا سيد تريد حرق الأرض مرة أخرى؟"، فيُبهر سيد من موقف علام وكلامه ويصيبه ذهول كبير، فيحضر وهدان وزعتر ومريم، فترد مريم: "يا سيد، هل الثعبان ينفث عسلًا؟ دائمًا الثعبان يخرج سمًّا، وأنت يا علام تريد تدمير الكل، طمعك في

العمودية أعمى قلبك وجعلك تحرق الأرض، وقد أخبرك وهدان بأنك ستكون عمدة بشرط أن تحضر من أحرق المحصول لكن كيف وأنت الذي أحرقت المحصول؟".

علام: "أنا؟ ولماذا أحرقه؟ وما الدليل؟".

مريم تنظر إلى زعتر فيأتي زعتر بآثار من القماش المخلوط بالبنزين في منزل علام، ويرد مستغربًا: "يا زعتر الكلب، أنت وراء كل شيء، ولكن هذا ليس بدليل، ربما أنت من فعلت ذلك".

مريم: "ولكن هناك شيئًا آخر".

علام: "ما هو ذلك الشيء؟".

مريم: "قص يا زعتر ما رأيته"، فقص زعتر ما شاهده، ولكن علامًا قال: "لقد كنت خارجًا مثل أي شخص في الكفر"، مريم كانت تمتلك الضربة القاضية ولم تخبر وهدان بها، فقالت له: "هناك دليل آخر"، فتعجب علام وزعتر ووهدان، قالت: "ابنتك يا علام قد حضرت إلي وأخبرتني بأنك أنت من أحرقت المحصول، وشاهدتك وأنت تفعل ذلك من نافذة المنزل". فينظر وهدان إلى عمه متعجبًا: "يا عم لقد كنت أظن بأن أنت من سيحمي ظهري، ولكنك الآن تصبح أول من يطعنني في الخفاء، وكل هذا من أجل العمودية؟! خسارة يا عمي، ولكن مهما حدث يا أمي سيكون هو عمي، ولن أسمح لأحد أن يقلل من شأنه ما دمت حيًّا، وأنت يا سيد تريد أخذ ثأر جدك؟ موضوع جدك انتهى يا سيد". فيرد سيد غاضبًا: "لا لم ينتهِ"، وبذلك فتح علام بئرًا كانت قد طمسها الزمن. وأردف سيد: "وأنتم يا آل السمنهوري من هذا اليوم ليس بيننا وبينكم إلا العداوة ودم جدي موسى". فينظر وهدان ويقول: "يا سيد، جدك إن كان قُتِل فهو أمر وانتهى، وما دام أنك قد فتحت بابًا أوصده

الزمن فليس لكم عندنا أي شيء، وانتهى الكلام، يا أمي، يا عم، أنا قد أنهيت كلامي".

مريم ضاحكة تقول: "انتهى الكلام يا وهدان، ولكن يجب أن يكون الجميع حريصين من اليوم؛ فأبواب الشر قد فتحت أذرعها، وأنت يا علام، احرص على نفسك وقلل من تحركاتك، سيد طبعه الشر مثل جده تمامًا"، وينصرف الجميع كلٌّ إلى داره.

فجلست مريم ووهدان يتحدثون ويستشير وهدان والدته، فترد: "يا وهدان، الطيبة في هذا الزمن ليس لها مكان، هذا الوقت يحتاج القوة، يا وهدان يجب أن تسمع كلامي، أنا الكبيرة وأنت العمدة قدام الناس، لكن أنا الكل في الكل يا وهدان...".

فيقوم وهدان وتبدو على وجهه ملامح الغضب:

يا أمي أنا أعلما أنك الكل في الكل، ولكن أولاد موسى ما هي قصتهم؟ أريد أن أعلم".

تجلس مريم متذكرة الماضي وهي تقول لابنها:

"حسنًا يا وهدان، موسى جد سيد كان العمدة، وكان يعامل الناس بالشر والحقد، وكان أبوك رجلًا محبوبًا عند الناس، فبجانب شر موسى وطيبة أبيك وحب الناس له، شعر موسى بالخوف من أبيك على الرغم من قوته وجبروته، وكنت دائمًا أحذر أباك من موسى، فكان يقول الحامي هو الله يا مريم، حتى يأتي اليوم وتأتي الناس إلى أبيك وتطلب منه أن يكون العمدة، وأن أهل الكفر كلهم سيقفون معه؛ لأن موسى ظالم ومفترٍ على الناس، فرفض أبوك كثيرًا، ولكن أقنعته بالفكرة حتى يكوِّن سلطة وقوة، فوافق أباك وكان محبوبًا في المركز، فرحبت السلطات بذلك، وبخاصة عندما عرفوا أن الناس تريد أباك،

وصل الخبر إلى موسى، لكنه لم يفكر في أن يأتي إلى أبيك ويعاتبه، بل فكر في شيء واحد، وهو التخلص من أبيك، لأنه بذلك سيكون هو العمدة، وكان عمك علام صغير السن، شاب في مطلع العمر، ومعهم زعتر، كانوا قادمين ليلًا من المركز في طريق الساقية القديمة، فوجدوا سيد موسى وشخص آخر معه لا نعرفه، وفي ظلام الليل أوقف الرجل أباك وعمك وزعتر وحاول أن يضرب أباك، فتصدى له علام وزعتر، وقام علام بضرب موسى، وزعتر مسك الرجل الآخر، فسقط الرجل في الساقية، وظل علام ممسكًا بموسى، فطلب أبوك من علام أن يتركه، فتركه علام، ولكن يا ولدي الشر شر، فما لبث أن تركه علام حتى قام بإطلاق عيار من مسدسه، فتصدى له زعتر، فأصيب ذراعه، فقام علام بركل موسى، فسقط الآخر في الساقية، وحمل أبوك زعترًا وأتوا به إلى البيت وقاموا بتطهير الجرح وإخراج الرصاصة، وفي الصباح والناس ذاهبون إلى العمل ليشغلوا الساقية وجدوا شخصين في الساقية ميتين، فالتف الجميع وحضرت الشرطة، ولم يثبتوا أي شيء، ولكن أبناءه قالوا أن من قتله هو أبوك حتى يفوز بمنصب العمودية، ومنذ ذلك اليوم والعداوة بيننا وبينهم، وبعد موت أبيك رأى علام أنه هو الأحق بالعمودية نظرًا لما فعله، ولكن كانت العقبة الوحيدة أمامه أنا؛ لأن أباك كان لا يتحرك خطوة إلا إذا رجع إليَّ وأخذ رأيي فيها، وهكذا أنت يا وهدان، أريدك أن تكون مثل أبيك، واجعل عينيك على علام، فعلى الرغم من شره فهو سيفيدك في الأيام القادمة".

فهز وهدان رأسه وهو يقول: "وما الفائدة التي تعود منه وهو يريد الخلاص مني؟".

فترد أمه: "يا ولدي، كلام عدوك أفضل من كلام صديقك؛ لأن العدو يرى كل سلبياتك، وصديقك يمدح حسناتك، وعلام يريد أن يُظهِر كل سيئاتك للناس، فاعرفها وحسِّن منها، فقربه إليك".

فيقول لها وهدان: "إن شاء الله، والآن سأذهب لكي أستريح لبعض الوقت". فتأذن له ويذهب الاثنان إلى غرفهم ليستريحوا من عناء يوم طويل.

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع

وتدور طاحونة الأيام لتلقي بداخلها البشر، فيتصارع جميع البشر الكل يريد أن يظهر بأنه هو القوي بأي ثمن وبأي طريقة، ولكن هذا سيأخذ في وجهه الكثير كسيل جارف يحمل بين أمواجه صخرًا يضرب به الناس، أهل الكفر كلهم ليسوا حمل صدمات أخرى، يكفي ما مر عليهم من حزن وقهر وفقر، وتستمر طاحونة الأيام تعمل، لا يستطيع أحد أن يوقفها، والناس بداخلها تتصارع، فهناك تجد كل الصفات متوفرة، الخير والحب والكرم والتسامح والحقد والكره والشر، كله يدور في طاحونة الأيام، وكل واحد له ميعاد ليسلك طريقه إلى الأسفل لكي يخرج منها، ومن يخرج منها فقد انتهى وقته وقامت قيامته، وأهل الكفر قد دخلوا تلك الطاحونة ودارت بهم، فتطاحنوا فيما بينهم متجاهلين لأمر مهم، وهو أن ما يفعلونه سيودي بهم إلى طريق واحد، وهو طريق الهلاك، طريق بواباته سوداء، وأصبحت الأمور في أصعب أشكالها ومريم بدوارها تفكر وتخطط، فهي الرأس المدبر لكل شيء، وهي الرعب الظاهر في هيئة امرأة، وآل موسى يفكرون في الانتقام وإرجاع سطوتهم التي كانوا قديمًا يتمتعون بها، والناس في الوسط بين الاثنين هم من يدفع الثمن في كلتا الحالتين، واقعون بين حجري الطاحونة ليس لهم حول ولا قوة ولا ذنب بما يجري، وستكون هناك مجزرة كبيرة إذا استمر الوضع هكذا، ولكن أولاد موسى التشتت والتفرق أضعف شوكتهم، الكل يريد أن يعيش في

سلام ومأمن، ومنهم من يجد مصلحته مع العمدة ومريم، ويحدث نفسه بذلك، فالكل معترض على ما يخطط له سيد؛ لأنه طريق أسود مليء بالأفاعي، من يدخله لا يسلم من لدغاتها، فالنهاية معروفه، موت محقق أو سجن محقق ، وأصر سيد على رأيه، ووصل الخبر إلى آل العمدة ومريم على ما ينوي سيد أن يفعله، وبعد رد فعل أهل سيد بعدم الدخول في خصام مع العمدة وأمه بدأ يدبر حاله بنفس، فبدأ يخرج بالليل كثيرًا حتى يفكر ويدبر الأمر خارج نطاق المنزل الذي عشش الضعف على جدرانه، فكان يخرج إلى القهوة فيجلس مفكرًا وحيدًا، ولكن الأفكار في رأسه تتصارع، ويكاد رأسه ينشطر من التفكير، وهو يصر على تنفيذ مبتغاه، وفي إحدى الليالي قد حجب القمر السحاب أشعته الذهبية فأصبح خافتًا، وأثناء عودة سيد خرج الملثم بالسواد واعترض طريقه، نفس الشخص الذي يقوم بالقتل، فأوقف سيدًا، وسيد بداخله الخوف قد أشعل قناديله وتملكه الفزع، ولكن حاول أن يسيطر على نفسه، ولم يصدق ما رآه وتذكر كلام الناس عن الجني الأسود الذي يخرج بالليل وثيابه سوداء ويقتل الناس، فهذا الجني هو حامي وهدان، ربما تكون روح تحميه، وحدثه حديثًا شديدًا وهو يشير إليه بخنجره ذي المظهر الغريب ويقول لسيد بعنف وهو ينهره: "كل ما يدور في رأسك معروف، ولكن هذا أبعد من خيالك في تحقيقه، وأي أحد قد يفكر في الاقتراب من وهدان سيكون الخنجر رسولي إليه ليقطع رأسه الذي فكر في يوم أن يأذي وهدان، وستكون نهاية كل أهله"، ووجه الخنجر نحو سيد يهدده بأنه إذا فكر يومًا في أن يقتل وهدان فهذا الخنجر سيكون مزروعًا في قلبه قبل أن ينفذ فعلته:

"والآن اذهب ولا تلتفت خلفك". فذهب سيد مسرعًا وسار الملثم في الأراضي، وفجأة اختفى عن الأعين على الرغم من أن الأرض خالية، فلم يظهر له أثر وكأن الأرض قد ابتلعته، وسار سيد مبتعدًا، ولكنه قد اختفى خلف شجرة ونظر خلفة فلم يشاهد أحدًا، واقتنع سيد أن هذا ليس من البشر، بل جني يحمي وهدان، وعلم الناس بما حدث، حيث قص سيد القصة على أهله، وبدأت تنتشر في القرية ووصلت إلى وهدان ومريم، فضحك الجميع، وأثناء جلوسهم يستمعون إلى الراديو أُذيع خبر وفاة الزعيم جمال عبد الناصر، الحدث الذي أفزع مصر كلها.

ومن الجانب الآخر تتحدث الناس عن الجني، وكثير من الناس غير مقتنعين بتلك القصة، مثل الحاج محمد الجزار، ويقول:

"بل هناك شخص يريد إشعال النار بين الأطراف ويستغل المشكلات، وهذا مرسال شر يريد للناس أن تتقاتل، ولا بد أن له مصلحة في أن يجعل العائلتين في قتال مستمر".

فيرد الدكتور شريف:

"يا أبي، الناس معذورة فيما يدور في الكفر، وليس هناك جني ولا جنية، ومؤكد أن هذا شخص من أقرباء وهدان، أنا أشك في زعتر بسبب نظراته الغريبة وتحركاته المريبة بالكفر ليلًا ونهارًا، وكأنه نذير شر كما قلت يا أبي، وهو مستفيد من المشكلات كلها".

محمد الجزار متعجبًا:

"زعتر؟ لا يا ولدي لا نظلم أحدًا، ولماذا لا يكون علامًا، علام شرير وحاقد علي وهدان".

فإذا بالابن يقول:

"يا أبي علام حاقد على وهدان ويدافع عنه، هذا ليس معقولًا، وقد يكون زعترًا؛ لأن زعترًا ينفذ أوامر مريم، وأي شخص يحاول أن يؤذي وهدان لن يتردد زعتر لحظة في قتله، ولكن هل تعرف يا أبي مفتاح المشكلة ما هو؟".
الحاج محمد: "ما هو مفتاح المشكلة؟".
دكتور شريف: "الملثم دائمًا يستعمل خنجرًا، والناس تقول إن الخنجر مميز جدًّا، فإذا وُجد الخنجر مع أي شخص يكون هو من يفعل كل المصائب التي يتعرض لها الكفر".
الأب: "حقًّا، ولكن المهم الآن يا دكتور، أنا أتمنى أن أفرح بزواجك".
الابن يرد على أبيه قائلًا:
"سأفكر يا أبي، والإجازة القادمة سأخبرك بأن توفر لي عروسة".
الأب ضاحكًا:
"تحت أمرك يا دكتور".
يستأذن أباه ليذهب إلى زيارة أخته نجلاء قبل أن يسافر إلى القاهرة ليباشر عمله.
يذهب شريف إلى دار العمدة حيث الزينة التي تغطي المكان، والزخارف على الجدران، فتراه نجلاء من النافذة فتنزل مهرولة، وقبل أن يطرق الباب تفتح له وترحب به، ويدخل ويجلس ليتحدث مع أخته ويخبرها بأن أباه يريد أن يزوجه، فتفرح نجلاء فرحًا شديدًا وتقول:
"هذا اليوم الذي نتمناه، وأحسن خبر قلته، ومؤكد أن فاتن ستفرح بهذا الخبر فرحًا شديدًا".
شريف:

"مؤكد ستفرح، ولكن هل الحاج علام سيوافق؟"، فإذا بنجلاء تنظر إلى أخيها بتعجب قائلة: "ولماذا لا يوافق؟ أنت وفاتن ربط الحب بين قلبيكما".

شريف يذكِّر نجلاء بأمر مهم قائلًا:

"يا نجلاء، أهل الكفر لا يعتمدون على الحب، الناس لا تعتمد إلا على هذا ابن من ولديه كم فدان".

نجلاء غاضبة:

"شريف، هل تخجل من أبيك؟".

شريف يرد:

"لا والله لا أخجل من أبي، يكفي أنه قد علمني إلى أن صرت دكتورًا وناجحًا في عملي، وإلى الآن يقف بجواري".

فإذا بنجلاء ترد على أخيها شريف قائلة:

"يا شريف، نصيحة يا أخي، هناك جنيه يأتي بجنيه، وهناك جنيه يأتي بمليون، أبوك ضحى بالأرض لأن جنيه الأرض يأتي بجنيه، وأنفق كل شيء على تعليمك؛ لأن الجنيه الذي صرفه عليك سيأتي بمليون يا أخي، أفهمت يا شريف؟".

فيرد شريف على نجلاء قائلًا:

"فهمت يا نجلاء، أقسم أني فاهم كل هذا الكلام، ولكن ليت أهل الكفر يفهمون".

نجلاء تطمئن أخاها وتخبره بأنها سوف تمهد له الأمر قائلة:

"اترك الأمر هذا عليّ، أنا سأكلم وهدان".

شريف:

"ولكن لا تسبي لنفسك المتاعب، وأنا سأسافر غدًا إلى القاهرة، وسوف أنزل الكفر بعد شهر، وإذا وافق وهدان أو علام حدثي

أباك ليُتم الخطبة، وعندما آتي في الإجازة القادمة نقوم بإتمام الزفاف، والآن أتركك لأن موعد القطار قد حان"، شريف يخرج من البيت ويتجه إلى سكة القطار والأفكار في رأسه تتصارع، وهناك سؤال يحيره: هل علام سيوافق أم سيرفض؟

وفي الصباح الباكر تذهب فاتن إلى دار العمدة لمقابلة نجلاء، تذهب حاملة الألم وتحبس الدمع خلف جفونها، والألم يرفرف فوق رأسها وكأن الحزن كله سكن بين ضلوعها ولكنها لا تبدي منه شيئًا، فذهبت مسرعة إلى دار نجلاء لكي ترتمي بين ذراعيها وتذرف الدموع التي تحرقها، ونجلاء تحاول أن تهدئها لتعرف ما حدث، فأخبرتها فاتن بأن أباها يريد أن يزوجها، هناك شخص من الكفر المجاور يريد أن يخطبها، ولكن نجلاء تطمئنها وتخبرها بأن شريفًا قد حدثها ويريد الزواج بها، وإذا وافق أبوها سوف يتمم الزواج الإجازة القادمة بعد شهر تمامًا، فهدأت نفسها وفرحت قليلًا، ولكنها ما زالت خائفة وهي تقول:

"ولكن هل سيوافق أبي أم سيكون هناك اعتراض؟ إذا رفض أبي ستكون هذه نهاية حياتي". فتطمئنها نجلاء وتخبرها أن الليلة سوف تحدث وهدان في الأمر وهو سيحدث مريم، وإذا وافقت مريم الكل سيوافق: "أنت تعلمين، لا أحد يستطيع في العائلة أن يكسر لها كلمة، بل في الكفر كله". فتداعبها نجلاء وتقول لها: "ابتسمي لتجعلي القمر يشرق بالنهار". فتهدئ من روعها، وهي تفكر إذا حدث هذا الأمر ستكون قد حصلت على ما حلمت به طوال عمرها، وارتبطت بالشخص الذي طالما تمنته لنفسها زوجًا وحبيبًا.

وفي الليل يأتي وهدان فتحدثه نجلاء وتقول له: "لك عندي خبران"، فينظر وهدان إليها وهو يتأملها ويقول: "هل هما خبران مفرحان أم يجلبون الحزن؟"، فتقول له: "بل الفرح والسعادة"، فيقول لها: "أخبريني بسرعة"، تقول له: "الخبر الأول هو أنك ستصير أبًا"، فيفرح فرحًا شديدًا ويقول: "سأصير أبًا، وإن شاء الله سيكون ولدًا وأسميه أحمد على اسم أبي، ولكن ما الخبر الثاني؟"، فتخبره بما دار بينها وبين شريف عن زواجه من فاتن، فيرد وهدان: "الدكتور شريف وفاتن؟ هذا خبر سعيد، وأنا ليس لدي مانع، ولكن سأعرض الأمر على أمي في الصباح، وإن شاء الله ستوافق، ولكني أعرف مريم، طبعها صعب جدًّا وستحتاج إلى إقناع شديد، ليسر الله الأمر".

نجلاء مداعبة زوجها: "الخير والبركة بك يا حبيبي".

وهدان مبتسمًا يقول: "إن شاء الله خيرًا، وفي الصباح سأحدث أمي، والآن دعك من كل هذا ودعيني معك، فأنت حبيبتي"، فتبتسم نجلاء.

وفي الصباح يذهب وهدان إلى غرفة أمه وهو يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى، ويلقي السلام على والدته ويقبل يديها ثم ينظر يمينًا ويسارًا، فتنظر إليه مريم وكانت ماكرة جدًّا، فتسأل وهدان:

"ما بك اليوم يا وهدان؟ أتريد أن تقول شيئًا وخائف لأن الشيء هذا لن يرضيني؟ على أي حال أخرج ما في جعبتك يا وهدان"، فجلس بجوار أمه وهو يتردد في الكلام.

مريم تنظر إليه وبلهجة حادة تقول:

"تكلم يا ولد".

فإذا بوهدان يرد:

"حاضر يا أمي، هناك خبران، الأول أنك سوف تصبحين جدة في القريب العاجل".

مريم فرحة: "نجلاء حامل؟ ألف مبارك يا ولدي، وما الخبر الثاني؟".

تكلم وهدان: "أنت تعرفين فاتن ابنة عمي علام بالطبع، هناك شاب يريد أن يتقدم لها ويخطبها، وقد حدثني في الأمر فجئت لأعرض الأمر عليك".

مريم: "وهل حدثت عمك علام؟".

وهدان: "يا أمي أنت الكل في الكل".

مريم: "ومن الشاب؟ وابن من؟"، فينظر وهدان إلى أمه ويقول لها: "هو ابن ناس طيبين"، فتنظر مريم إلى وهدان وتقول: "من العريس يا وهدان؟ وكفاك لف ودوران".

وهدان:

"الدكتور شريف أخو نجلاء".

مريم: "ابن محمد الجزار يريد أن يتزوج بفاتن ابنة عمك؟".

وهدان: وما به شريف؟ دكتور ومتعلم وناجح في عمله، ولا تنسي يا أمي أنني متزوج بأخته، وأيضًا هو قد أنقذ حياتي".

فتقول له: "أنا لم أنس يا وهدان، أنت من ينسى شيئًا مهمًّا جدًّا، نحن نتزوج من أي أحد، ولكن لا نزوج بناتنا لأي أحد، مفهوم يا وهدان؟".

فيرد وهدان:

"ولكن يا أمي أنا وعدته بأني سوف أتمم له الموضوع، أنت بذلك تجعلينني صغيرًا أمامهم وليس لي كلمة يا أمي، ولا تنسي أن شريف هو من أنقذني من الموت".

مريم ترد على وهدان:
"اتـرك الموضـوع الآن وأنـا سـوف أفكـر وأخبـرك برأيـي، وإلى أن أخبرك، لا تفتح هـذا الموضـوع مـرة أخـرى، مفهـوم يـا وهـدان؟"، فيخرج وهدان ونجلاء على السلم فينظر إليها ملمحًا بأن مريم لم توافـق، ويخـرج إلى خـارج الـدار ونجـلاء تصـعد إلى غـرفتها حزينـة، ومريم في غرفتها تفكر في الأمر، فإذا بها وبصوت عال تنادي زعترًا.
يأتي زعتر إلى مريم فتقول:
"هناك مهمة أريدك أن تقوم بها".
زعتر:
"تحت الأمر والطلب".
فتنظـر إليـه مـريم قائلـة: "يقولـون إن محمـد الجـزار لديـه ابـن دكتور اسمه شريف، أتعرفه؟".
زعتر: "نعم أعرفه".
مريم: "هناك أمر أريدك أن تقوم به".
زعتر: "مثل كل مرة؟".
مريم: "لا، هذه المرة أول مرة ستقوم بأمر به خير يا زعتر".
فيضحك زعتر ويرد: "ما هو هذا الأمر يا ست الكل؟".
مريم: "أريدك أن تجمع لي كل المعلومات عن شريف، كل صغيرة وكبيرة في أسرع وقت ممكن".
فينفـذ زعتر الأمـر ويبـدأ في مهمتـه، فيجمـع كل المعلومـات عـن شريـف، أنه دكتور ناجح في عمله، وله معارف كثيرة في الحكومة، وله مزرعة في مصر بها مواشٍ وغني جدًّا، فتفرح مريم بهذا الخبر وتطلب من زعتر الانصراف وهي تقول:

"فاتن وشريف يتزوجون ونكسب صفقة جديدة وسند جديد لوهدان".
وفي الصباح كالمعتاد يدخل وهدان غرفة والدته لكي يسلم عليها فيجدها بانتظاره، فيصبح عليها ويستأذن، فتسأله: "يا وهدان، ألن تسألني عن رأيي في زواج فاتن وشريف؟".
فينظر إليها وهدان وهو يقول:
"هل هناك شيء جديد؟ أنا أعرف الرد مسبقًا".
مريم ضاحكة على غير عادتها تقول: "يا وهدان، خاطرك غالٍ عندي يا ولدي، أنا ليس عندي مانع في زواج فاتن من شريف".
يفرح وهدان ويحتضن أمه ويخرج فرِحًا، فتراه نجلاء وهي جالسة وحزينة، فيقول لها: "اذهبي إلى أبيك وأخبريه أن يأتي لإنهاء مراسم الخطوبة والاستعداد للزفاف".
فتسأل: "زفاف من؟" فيخبرها: "شريف وفاتن"، نجلاء متفاجئة: "أوافقت أمك؟!".
وهدان:
"وافقت"، فتفرح نجلاء فرحًا شديدًا، وتستأذن وهدان في الذهاب إلى أبيها فيأذن لها وتذهب مسرعة تريد أن تطير وتحملها الفرحة لتخبر أباها، فتدخل البيت وتقابل أمها فتسأل عن أبيها، فتقول لها أمها بحزن: "أبوكِ في الغرفة، أغلق الحجرة على نفسه ويبدو عليه الحزن".
نجلاء: "لماذا؟".
ترد أمها:
"والله يا بنيتي لا أدري ما المشكلة".

فتطرق الباب على أبيها وتخبره أنها نجلاء فيفتح لها ويسمح لها بالدخول فتدخل، فتجده متكئًا على أريكته ويمسك بمسبحته والدموع تبلل لحيته، فتسأله نجلاء: "ما بك يا أبي؟".

فيرد بحزن شديد:

"تذكرت الأحبة يا ابنتي، تذكرت الذين رحلوا وكانت تربطني بهم الألفة والحب، تذكرت الشيخ أحمد صديقي عليه رحمة الله وحال الكفر الذي لا يرضي عدوًّا ولا حبيبًا، ووهدان مطوق بمريم يريد أن يفك طوقها ولكنه لا يستطيع، كل هذا يا بنتي ألا يُبكي؟".

فقالت نجلاء: "يُبكي يا أبي ولكن ماذا نفعل؟ يا أبي الله قادر على تغير الأحوال".

الأب: "ونعم بالله يا ابنتي"، فتهدأ ابنته وهي تقول: "يا أبي الماضي لا نستطيع إرجاعه، والمستقبل لا نعلمه، والحاضر ما نعيشه، اجعلنا في الحاضر، وقد جئت لك بخبر مفرح يا أبي".

الأب: "خبر مفرح؟ أخبريني كيف حالك بالحمل؟".

ترد نجلاء: "الحمد الله أنا بخير، ولكن هناك شيئًا آخر وفرح آخر أريد أن أخبرك به". فينظر الأب إلى فرحة ولهفة ابنته ويقول لها: "ما هو هذا الخبر الذي يجعل الفرحة تطير من عينيك؟"، وترد أمها: "أخبرينا يا نجلاء فقد اشتقنا إلى سماع هذا الخبر".

نجلاء: "أنتما تريدان أن تزوجوا شريفًا، وشريف اختار العروس منذ زمن".

الأب: "ومن هي يا نجلاء؟".

الأم: "أخبرينا عنها يا ابنتي لا تتعبينا".

نجلاء: "إنها فاتن بنت علام".

الأب: "وهل علام موافق؟ وإذا وافق علام هل توافق مريم؟ يا أبي أنا قد تكلمت مع وهدان لكي يعرض الأمر على مريم، وهي أبدت الموافقة".

فإذا بأمها تقول: "هذا أسعد خبر، وما دام مريم قد وافقت فسوف يوافق علام".

نجلاء: "الليلة تذهب يا أبي إلى دار علام، وسيذهب معك وهدان لتطلبوا يد فاتن".

الأب: "حقًّا إنه أسعد خبر يا نجلاء، تمم الله لهما على خير".

فتعم السعادة وتزغرد الأم من الفرحة، ويذهب الجميع لدار علام لطلب يد فاتن إلى الدكتور شريف، فيتردد علام في البداية في الموافقة، فيرد وهدان:

"لقد عرضت الأمر على أمي وهي أخبرتني أن الدكتور شريف تتمناه أي بنت في الكفر، وهو خير الشباب، وأخبرتني أيضًا بأنها ليس لديها اعتراض على زواجه بفاتن".

فيقول علام: "نِعم الكلام ما قالته السيدة مريم، وأنا لا أقول شيئًا آخر، أنا موافق، مبارك لهما".

وهدان يقول: "لنقرأ الفاتحة، وأحضر لنا الشربات".

وتمر الأيام سريعة ويبدأ التجهيز للزفاف، الدكتور شريف وفاتن والكفر كله شعر أن غراب الحزن قد فارق الكفر أخيرًا، وأن الحياة قد بدأت تضحك من جديد، وتبدل لونها إلى الأبيض لتزين الكفر وتملأه بهجة وسرور، ويتحدث الناس عن زفاف شريف وفاتن بنت علام، ولكن هناك أيدي شر تدبر إلى صيد طائر الفرح الذي قدم إلى الكفر ليطرد طائر الحزن، وسيد يريد أن يدمر الكل، ويريد بأي طريقة الخلاص من وهدان حتى يصير العمدة،

ولكنـه نسـي شـيئًا مهمًّـا، وهـو أن بأفعالـه هـذه لا يمكـن أن يصير عمدة؛ لأن كل الناس تعرف أن سيدًا سيكون وراء كل شر يحدث في الكفر، وأن السوء الذي يدبره والنار التي يريد إشعالها أول من ستحرق سيكون هـو، ولـن يصـل إلى مـا في رأسـه، وربمـا يحملـه تدبيره إلى نهايته ونهاية أولاد موسى كلهم من الكفر. ويأتي ميعاد الزفاف ويتجمع أهل الكفر صغيرهم وكبيرهم نساء ورجالًا، وتبدأ مراسم الزفاف وتعم الفرحة وتدوي أصوات الأعيرة النارية تعبيرًا عن الفرحة، ومريم على الرغم من كل هذا تطلب من زعتر تأمين الزفـاف وألا تغيـب عينـاه عـن وهـدان: "لأن أولاد موسـى سـوف يستغلون انشغالنا بالزفاف، ولا ندري ماذا يدبر سيد يا زعتر".

زعتر يرد:

"لا تخافي يا سيدتي، أنا لن أترك سيدي وهدان أبدًا"، وما حسبته مريم وجدته، فأثناء انشغال الناس في حفل الزفاف كان سيد قد استأجر بعض الرجال من خارج الكفر واستغلوا خلو بيت العمدة؛ لأن الحفل مقام عند دار محمد الجزار، فقام أولاد موسى بإشعال الحريق في بيت العمدة، فوصل الخبر إلى زعتر فأوصله إلى مريم، فيهيج الكفر كله ويذهب لإطفاء النار، ويسيطرون عليها قبل أن تسبب ضررًا كبيرًا، فما أكلت إلا حجرة خلفية فارغة.

مريم تنادي بصوت عال:

"كل هذا يدل على الدمار الذي سوف يصيب الكفر"، ثم تنادي زعترًا فيحضر مسرعًا: "نعم يا سيدتي؟".

مريم: "ابحث عمن فعلها، تحقق وتعال، وأخبر العمدة"، العين الراصدة والمشاهدة أخبرت زعترًا أن سيدًا قد استأجر رجالًا من

خارج الكفر وهو من أشعل النيران في بيت العمدة. تحضر قوات من المركز للتحقيق في الواقعة، ولكن مريم قالت:

"لم يحدث شيء، فهي غرفة فارغة وقد كنا نحرق بعض القمامة، وحسبناها قد انطفأت فتركناها، فاشتعلت وأكلت تلك الغرفة وقد كانت فارغة لا يوجد بها شيء". فتستأذن القوات وتنصرف، ويتعجب وهدان مما فعلته أمه، فتقول له: "لا تتكلم"، فيمسك وهدان لسانه عن الكلام ويفطن الحاج محمد أن مريم تدبر لأمر خطير.

ثم يحضر زعتر ومعه الخبر اليقين وراء من فعل تلك الفاعلة، فدخل على مريم وهو يقول:

"يا سيدتي، هم أولاد موسى".

فتقوم مريم وتنادي وتقول: "بهذا اكتفيت يا وهدان".

وينصرف الجميع ويُطلب من شريف وفاتن الذهاب إلى بيتهم، ويُطلب من أهل الكفر أن يذهبوا إلى بيوتهم، فيذهب كلٌّ إلى بيته ويذهب شريف وفاتن إلى بيتهم لينتهي الفرح بحزن وشر سوف يدمر الكفر كله.

وتمر أيام قليلة ويأتي خبر في الكفر أن موسى والد سيد قد توفي، وأن الجنازة سوف تخرج بعد صلاة الظهر، فتقوم مريم وتنادي وهدان وهي تقول:

"أولاد موسى لا يمرون من عندنا، ولا يدفنون موتاهم عندنا"، فتخرج مريم وزعتر ووهدان ويقفون في الشارع حتى قدمت الجنازة، فإذا بمريم تنادي: "يا سيد موسى"، فيخرج سيد وهو يقول: "ماذا تريد يا وهدان أنت وأمك؟".

مريم: "يا سيد، جنازة أبيك ترجع، وعدوي لن يمر عليَّ ما دامت الأنفاس بالجسد موجودة".

سيد مستغربًا:

"ماذا تقصد يا وهدان؟".

وهدان: "كما سمعت يا سيد، ادفن في أي مكان آخر، ومن اليوم لا تدفنوا موتاكم عندنا، ولا تمروا من طريقنا، وقد أعذر من أنذر يا سيد، وأي شخص يفكر في أن يخطو خطوة أخرى سوف أشعل النار في جنازة أبيك كما أشعلتها في الدار".

فيأخذ سيد الجنازة ويرجع، فيشير إليه أحد الأشخاص بأن خلف بيوتهم أرضًا صحراوية واسعة: "نذهب وندفن أباك هناك ونجعلها لنا ندفن فيها الموتى"، فيرجع سيد ويدفن أباه.

ولكن هل اكتفت مريم بهذا الفعل؟ لا، بل أرادت أكثر من هذا، أرادت قتل سيد بأي طريقة وبأي وسيلة، ولكن الوقت ليس مناسبًا الآن. وتسير الأمور وكلٌّ في حاله، أولاد موسى ومريم، وتمر شهور ليست بطويلة وتبدأ الناس تنسى ما حدث، ولكن إرجاع الجنازة وما فعلته مريم ما زال ساكنًا في نفوس الناس، وفي يوم كأنه ينذر بحدوث شيء، يوم يبدأ بقلق وتوتر بين كل الأطراف، وسيد قادم من زيارة خارج الكفر فإذا بالشخص الملثم يخرج له مرة أخرى، ولكن هذه المرة لم يحدِّثه، بل طعنه من الخلف في رقبته بالخنجر فأنهى حياته، وقام بعد ذلك بطعنه في الصدر طعنات متوالية وتركه غارقًا في بركة من الدماء واختفى، من فعلها؟ لا أحد يعلم، ومع شروق الفجر بدأت الناس تسير وشاهدوا شخصًا ملقى على جانب الطريق، فذهبوا إليه فإذا به سيد قد قُتل، الناس قالت إن وهدان وأمه هما من قتلاه نظيرًا لما

فعله، ولكن شخصًا ما يقول: "لا؛ فوهدان قد رأيته وزوجته ذاهبين إلى المركز"، ويقول شخص آخر: "ربما زعتر ومريم"، يقول الحاج محمد: لا؛ فزعتر ومريم كانا عندنا أمس حتى الصباح، ولم يفارق أحد منهم داري؛ لأن فاتن وشريف كانا يستعدان للسفر"، فقالوا ربما الجني قد ظهر مرة أخرى، فيرجع الجميع في ذعر وقلق، ويخرج الكل من الحقل ويعتكف أهل الكفر جميعًا في بيوتهم، وتحضر الشرطة للتحقيق ويذهبون إلى دار العمدة فترحب بهم مريم والعمدة، وتقدم مريم الهدايا للعساكر والغفر، فيبدأ التحقيق كالعادة ويُقفل كالعادة، والعساكر والغفر ينقلون الصورة بأن هناك جنيًّا يقتل الناس، وهو ساكن منذ القدم هنا، وليس هناك أحد يعرف شكله ولا ملامحه، ولا يخرج في كل الأوقات، فتسيطر على الناس في الكفر الخرافات نتيجة للجهل؛ حيث إن للجهل توابع، ومنها سيطرة الخرافات والشعوذة على قلوب الناس، حتى أن المتعلمين في الكفر جاهلون بكثير من الأمور، لم يستعمل أحد عقله، يفكرون وكأنه لا توجد في تلك الرؤوس عقول، كأنها رؤوس فارغة، كل ما بداخلها ظلام يسيطر على الأفكار وتسير الناس عميانًا على الرغم من أن أعينهم مبصرة، وصدقوا حكاية الجني الأسود، ويخيم الرعب على الكفر، فإذا حاول أحد أن يقترب من عائلة وهدان ستكون نهايته الموت وينتهي اليوم من تلك الأيام التي يطويها الزمن .

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس

والجد يكمل حديثه الشائق ونحن ملتفون حوله وهو جالس على المصطبة، والنار مشتعلة حتى تنشر الدفء حيث برودة الشتاء، وكلنا جالسون والجد يرى في أعيننا أن هذا ما نريده، فينظر متبسمًا كعادته بابتسامته البريئة، فعلى الرغم من شدته وقوته فعندما يبتسم كأنه طفل صغير، فيقول الجد: "أنا أعرف ماذا تريدون، تريدون معرفة حكاية مريم ووهدان ماذا فعل معهم، والجني الأسود هل هو شخص أم حقًّا جني"، فقلنا: "نعم يا جد، أكمل لنا الحكاية، إننا متشوقون لمعرفتها"، فيقول الجد: " بعد مقتل سيد حزن أولاد موسى وأصابهم الغم وفكروا ماذا يفعلون، فأرسلوا إلى أخيهم الذي كان مسافرًا، فأتى مسرعًا عندما عرف بمقتل أخيه الكبير سيد وذهب إلى بيته، فوجد الناس في حزن، فسأل عن الذي قتله، وهل أحد شاهده، فيرد أحد الأشخاص من عائلة موسى: "لا نعرف يا عنتر، كل ما نعرفه وما يحكي به الناس أن هناك جنيًّا يقوم بقتل الناس وكل من يتعرض على عائلة وهدان"، فيتعجب أخوهم ويقول: "جني؟! كيف؟ وهل هناك جني يدافع عن شخص؟ غدًا نعرف كل شيء والمتخبئ سيظهر ويشرق مثل الشمس، وأنتم يا أولاد موسى، جعلتم العار والذل يركب على ظهورنا بخوفكم من مريم ورعبكم منها، امرأة تحكم على كفر بصغيره وكبيره؟!"، فيرد أحد أعمام عنتر: "يا عنتر يا ولدي يكفي ما حصل إلى هذا الحد".

عنتر غاضبًا:
"هذا الكلام يا عمي هو الذي جعل الناس تتطاول علينا، السكوت على الخطأ، فعندما يخطئ شخص وتسكت عنه يتمادى في خطئه، أتعرف لماذا يا عم؟ لأنه عندما نسكت يظن أن هذا جبن وخوف منا".
فيرد العم مستغربًا:
"يا عنتر، هذا ليس جبنًا ولا خوفًا، وأنت تعرف، ولكن يا ولدي هناك أشخاص لا تستحق حتى أن ترد عليهم؛ لأنهم لا قيمة لهم يا ولدي".
عنتر غاضبًا:
"يا عمي، الكلب إن تتركه سوف يزداد نباحه ويطمع، لكن عندما ينبح وتضربه على رأسه يفر هاربًا، وبعض البشر مثل الكلاب، لا بد أن تضربه حتى لا يكرر خطأه". فيسكت الجميع وكأن الصمت قد حضر.
فإذا بعنتر يقول:
"مالكم يا أولاد موسى أرى الخزي والخوف والجبن قد سكنوا في أعينكم؟ إن كل واحد منكم مسؤول عما وصلت له العائلة، ويجب أن نعرف من الذي قتل سيد، انتهى الكلام، والسلام عليكم"، فيخرج عنتر غاضبًا ويترك الجميع، فيقوم الجميع كلٌّ يذهب إلى وجهته التي يقصدها وهم يقولون: "عنتر راجع يشعل في الكفر النار"، وبعض شباب العائلة التف حول عنتر لتصبح له قوة وسطوة وسيط في الكفر.
وفي الجانب الآخر ينتظر وهدان قدوم المولود الجديد؛ حيث إن نجلاء قد جاءها المخاط ووالدته بالداخل معها، وهو تتملكه

الحيرة والقلق، وبعد قليل تخرج أمه لكي تبلغه بأنه رُزق بولد وتبارك له، وتأمر زعترًا أن يقيم الاحتفالات بالكفر، ولكن تنظر إلى زعتر فتعلم أن هناك شيئًا جديدًا يريد أن يخبرها به، فتطلب من وهدان الدخول للاطمئنان على زوجته وابنه، فيدخل مسرعًا وتذهب هي وزعتر إلى المكتب ويخبرها بما قاله عنتر، فترد مستهزئة بقدوم عنتر وبما يريد فعله:

"عنتر الخائب رجع بعد السفر ويريد أن يأخذ بثأر سيد؟"، وتهزأ من قدوم عنتر للبحث عن قاتل أخيه وابن عمه، وتنظر مريم نظرة مليئة بالشر والمكر والخديعة وهي تقول: "بحثه لا جدوى منه؛ ما دام الخوف يسكن القلوب والسوط يكبل الألسنة لن يستطيع أحد أن يتكلم؛ فالخوف جعل الألسنة بكماء على الرغم من كلامها، وجعل الأذن صماء على الرغم من سماعها، صماء عن سماع الحقيقة، وبكماء عن قول الحق، والناس ما دام التفرق والتشتت شيمتهم سيبدأ السوس في نخر عظامهم حتى تهوي ساقطة، فالتفرق هو الهزيمة بعينها، فالذئب دائمًا يبحث عن الغنمة الشاردة عن القطيع حتى يصطادها لأنها ستكون ضعيفة في انفصالها عن القطيع، أما وهي بداخل القطيع في قوة وانتصار، وعنتر يحاول جمع ما تبقى من العائلة التي بعثرتها الرياح كأنها هشيم محتضر، فيذهب إلى جميع أهله صغيرهم وكبيرهم ليقفوا معه في مشكلته ويعاونوه في همه، ولكنه لا يجد إلا الخذلان قد رجع به يحمله على عاتقه، فكل محاولاته للوصول إلى الحقيقة باءت بالفشل، وأعين الناس تعرف ولكن أعماها الرعب والفزع".

ويستمر الشر في طغيانه، وتستمر مريم في استبدادها وسيطرتها على الكفر، فتطلب من زعتر ألا يرحم أحدًا، وأنه لا بد من الشدة والعنف مع الناس حتى يعلم أولاد موسى أن مريم ما زالت بقوتها السابقة وهيبتها.

فيبدأ زعتر في تنفيذ مهمته بإشعال نيران الغضب على سكان الكفر، ومن يعارضه لا يجد إلا القسوة والضرب والتعذيب، وظن الناس أن هذه الأفعال أوامر من العمدة وهدان ومريم، فزعتر لا يفعل هذا من تلقاء نفسه.

يحاول وهدان فك قلادة السيطرة والطوق الذي تقيده به أمه، فيذهب إليها قائلًا:

"يا أمي، ما يفعله زعتر بالناس لا يرضي أحدًا، والناس يا أمي تظن أنني أنا من أمرته بذلك، وقد تبدل حب الناس إلى بغض، واحترامهم لي إلى خوف مني، فأرجوك يا أمي ارفعي الأذى عن الكفر وأهله، واتركوني أدير شؤونه بمعرفتي".

تنظر مريم إلى وهدان والغضب قد أشعل شراراته بعينيها قائلة:

"اسمع يا وهدان، هذه رسالة أردت أن أرسلها إلى عنتر خصوصًا وإلي الناس عمومًا، حتى يعرفوا أن سطوة مريم ما زالت قائمة، وما تريده مريم يكون، إن أرادت السلام لأهل الكفر كان السلام، وإن أرادت أن تُدق طبول الحرب ويشتعل الكفر نيرانًا كان هذا".

ينظر إليها وهدان كأنه لأول مرة يقف أمامها، هذه ليست امرأة بل شيطان في صورة امرأة، فيقول وهدان:

"والناس المساكين ما ذنبهم فيما بيننا وبين أولاد موسى؟".

مريم مبررة وموضحة لوهدان:

"هناك سادة وهناك عبيد يا ولدي، والعبيد تحمل الرسالة إلى أسيادها، وعنفي مع أهل الكفر رسالة إلى عنتر مفادها أن الاقتراب من مريم مثل من رمى نفسه في بئر مشتعلة".
وهدان متأثرًا بهذا الكلام الخطير يقول والحزن يخيم عليه:
"يا أمي، الكفر ذاهب إلى مهلكة لا محالة منها، والناس سيأتي عليها يوم وتتمرد وتخرج من صمتها، وكثرة الضغط تولد الانفجار، وإذا انفجرت الناس يومًا لا أحد سيستطيع الوقوف في وجهها؛ لأنها ستكون كالسيل الجارف لا يبقي ولا يذر".
ويخرج وهدان والحزن جالس فوق هامته والألم يصحبه مقلبًا كفيه وهو يقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله، ليكون الله في العون على الأيام القادمة، ستكون أيام شر بواباتها سوداء".
تراه نجلاء بهذه الحالة فتحاول أن تخفف عنه وهي تقول:
"ما بك يا وهدان؟ أهناك سوء قد حدث؟".
ناظرًا إليها وإلى ابنه الرضيع يقول: "أمي تريد خراب الكفر ودماره، وستُهلك الناس بنيران شرها، ونحن سنهلك معها لا محالة، من يشعل نيران الفتنة لا بد وأن تصيبه شراراتها".
تنظر إليه ويصيبها الحزن وتقول: "ما الحل إذًا؟".
وهدان: "إن شاء الله خيرًا".
ويترك البيت خارجًا، ونجلاء تخاف عليه خوفًا شديدًا من أن يصيبه سوء؛ لأن أهل الكفر يظنون أن وهدان وراء كل مصيبة تحدث في الكفر، فالأعين دائمًا خداعة، الأعين لا ترى إلا المظهر فقط، ولا ترى جوهر الإنسان وما يكنه قلبه.
فتقرر نجلاء الذهاب إلى بيت أبيها لكي تشاركه في الأمر، وتستشيره عسى أن يفيدها في شيء ويخفف عن وهدان ما يعانيه

من حيرة وألم، فتدخل فتسلم على أمها وأبيها وهي تحمل طفلها، فتقوم الأم وتأخذ الطفل منها وتبدأ بمداعبته، ولكنهم قرؤوا في عينيها ما تخفيه من حزن وهم، فإذا بالأم -فردوس- تسألها:
"ما بك يا نجلاء؟ حالك اليوم به تغيير، لم أعهدكِ بهذه الحالة أبدًا".
ترد نجلاء ويكاد الحزن يفطر قلبها:
"وهدان يا أمي".
الأب -محمد الجزار-: "ما به وهدان؟ هل أصابه مكروه؟ لقد كنت معه البارحة ولم يبدو عليه أي تعب أو مرض، ماذا حدث إذًا؟!"
ترد نجلاء: "ليس هناك مرض بالجسد يا أبي، ولكن وهدان كادت الهموم أن تقتله والفكر يجعل جفونه لا تعرف النوم، وما يقوله الناس عنه من أنه مفترٍ وظالم للناس، وأنت تعلم يا أبي أن وهدان بريء من هذا كله، أرجوك يا أبي ساعدني وجد لي حلًا يخفف عن وهدان".
الأب: "يا بنتي وهدان مغلوب على أمره، ولا بد أن يتخلص من سيطرة أمه".
الأم ترد على ابنتها قائلة:
"كل تلك التدابير تقوم بها مريم، هي وراء كل مصيبة تحدث في الكفر، وإن شاء الله سينتقم الله منها هي وعلام".
نجلاء:
"ولكن يا أمي الناس لا تعرف كل هذا، وأنا قلقة على وهدان".
الأب: "الله الحامي يا بنيتي، وإن شاء الله سوف أقابله وأتحدث معه".

تستأذن نجلاء للعودة إلى المنزل، حيث الأمور بالدار لا تسير كما ينبغي، وتخرج حاملة ابنها وهمها معها، وأبوها يقول لها:
"يا بنيتي لا تخافي، سوف أجد حلًّا لهذه المشكلة، وسوف أقابل وهدان لأطرح عليه أمرًا، إذا وافق عليه سيكون بداية خير على الناس كلها، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى بعض الوقت".
الأم ترد: "ما هو ذلك الأمر؟".
الأب: "سوف تعلمونه وسيكون خيرًا".
تنصرف نجلاء إلى بيتها ويجلس الحاج محمد مفكرًا في حال الكفر كله.

❋ ❋ ❋

دائمًا الحياة تسير عكس ما نريد، وكل ما نعلمه منها أشياء بسيطة، وهناك أشخاص في هذه الدنيا همهم مساعدة الناس بغض النظر عن أي عائد من ذلك، ولكن ما يهمهم هو الصالح العام، وربما هؤلاء الأشخاص عندما نراهم لا نضع لهم أي أهمية، ولكن تجدهم هم الذين يسعون إلى الإصلاح دائمًا، وهناك من يريدون شهرة وغنى وصيتًا ولا يهمهم إلا المكسب الشخصي الذي يريدون أن يحققوه، ما أعجب هذه الحياة!
فينظر الحاج محمد الجزار في حال الكفر وما صار إليه وهو يقول لنفسه:
"إن أفضل الحلول للقضاء على هذه المشكلات كلها هو عقد صلح بين الطرفين، وإن شاء الله سيوفقني المولى في الوصول لهذا الصلح"، ويقرر الذهاب لمقابلة وهدان ليعرض عليه الأمر،

وعندما يصل إلى دار وهدان يجده جالسًا بالمندرة وحيدًا والحزن صديقه والألم أنيسه، فينظر إليه قائلًا:

"ما بك يا وهدان؟".

فينظر وهدان للمتكلم فيراه فيقول له:

"تفضل بالجلوس".

فينظر الحاج محمد إلى حال وهدان قائلًا:

"إلى متى ستظل جالسًا هكذا؟ وإلى متى ستترك الأمور في الكفر في مهب الرياح؟".

وهدان يرد بتأثر شديد:

"وماذا افعل؟ أمي أشعلت نيران الفتنة، ومن يستطيع إطفاء نيران مريم؟".

الحاج محمد مشجعًا وهدان وناصحًا له:

"يا بني، إذا كانت أمك قد أشعلت النيران لتدمير الكفر فكن أنت الماء الذي يطفئها، ولا تترك الرياح تزيد من شراراتها حتى تحرقك أنت نفسك يا ولدي، وأفضل شيء لتطفئ النار هو الصلح يا وهدان يا ولدي، إن الله لا يرضيه ما يحدث للناس من ظلم وقهر، واسمع يا ولدي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[٢] **صدق الله العظيم**

[٢] الحجرات: ٩

وهدان يرد:
"ونعم بالله، وأنا موافق، المهم أن تنطفئ النار التي تلتهم الجميع، ولكن يا عمي هل عنتر سيوافق على هذا الصلح وهو الذي يسعى لأخذ الثأر؟".
الحاج محمد:
"اترك عنترًا وشأنه لي، أنا سوف أقنعه".
وهدان:
"ليقدم الله الخير وليجعلك سببًا في إنهاء الدمار".
وأثناء الحديث يدخل زعتر مسرعًا ويقول: "يا عمدة، يا عمدة، الرئيس يخطب على التلفاز، فيفتح وهدان التلفاز فيستمع إلى خطاب الرئيس و الإصلاحات التي ينوي القيام بها من أجل مصر والنهوض بها في المجالات كافة، وأنه لا بد أن تتكاثف قوى الشعب من أجل النهوض والتنمية ومواجهة المخربين والمفسدين.
فينظر الحاج محمد إلى وهدان قائلًا: "يا وهدان يا ولدي، لقد سمعت ما قيل في الخطاب، لا بد من تكاتف الجميع يا وهدان، ولا بد لنا جميعًا -أهل الكفر- أن نتكاتف لمواجهة الأخطار التي تواجه الكفر".
ويستأذن الحاج محمد وهو يقول: "يا وهدان، سأذهب إلى عنتر لأخبره بما دار في شأن الصلح". فذهب إليه وجلس ليتحدث مع عنتر وهو يقول له:
"يا عنتر يا ولدي، هل يرضيك ما نحن فيه؟"
عنتر: "لا والله، حال الناس والذعر والخوف والظلم الذي يعانون منه في ظل العمدة وهدان لا يرضي أحدًا".
الحاج محمد:

"لا تظلمه يا ولدي، وهدان مجرد ستار، كل شيء يحدث تحت اسمه".

عنتر:

"ولكن هو العمدة".

الحاج محمد:

"وهدان عمدة في الظاهر، ولكن الأمر كله بيد مريم، هي من تسيِّر الرعب والذعر يا ولدي".

عنتر:

"ولماذا لا يمنعها وهدان؟".

الحاج محمد:

"ومن يا ولدي يستطيع الوقوف في وجه مريم وزعتر؟، المهم يا ولدي، هناك أمر أريد أن أطرحه عليك، وإن شاء الله سيكون فيه الصالح لكل الناس".

عنتر:

"تفضل يا حاج".

الحاج محمد:

"لماذا لا نعقد صلحًا بينك وبين وهدان؟".

عنتر:

"صلح؟ ودم أخي وابن عمي أتركه؟".

الحاج محمد:

"لا يا ولدي، ولكن هل تعرف قاتل أخيك وابن عمك؟".

عنتر:

"لا، ولكن مؤكد هو زعتر أو وهدان؟"

الحاج محمد:

"لا تظلم أحدًا، ومريم تريدها حرب، ولا بد من عقد صلح حتى نكسر شر مريم، وأنت ابحث عن القاتل وعندما تجده خذ بثأرك منه أيًّا كان هذا الشخص، موافق؟".

عنتر:

"موافق يا عم محمد، أنا لا أستطيع أن أرفض لك طلبًا".

فيتركه الحاج محمد والابتسامة تصاحب وجهه قائلًا:

"كل الأطراف موافقة على الصلح، لم يبق إلا تحديد الميعاد للجلوس والتصالح".

فيبدأ الخبر يشيع في البلد، أن وهدان وعنتر سيعقدون صلحًا لإنهاء ما بينهم من خصومات، فيصل الخبر إلى مريم، فتسير غاضبة وتنادي وهدان بغضب عارم:

"أصحيح ما يقال في البلد من أنك ستعقد صلحًا مع عنتر؟".

وهدان يرد على أمه:

"صحيح يا أمي، كفانا دم، كفانا خراب ودمار".

مريم تؤنب وهدان:

"أرضيت أن تركع من أول ضربة؟".

وهدان:

"يكفي يا أمي، الناس مساكين، ما ذنبهم؟".

مريم:

"الناس؟ وما بهم الناس؟ العبيد يا وهدان لا بد أن يخافوا وينكسروا حتى لا يفكروا أن يقفوا مرة أخرى".

وهدان:

"زمن العبيد انتهى يا أمي".

مريم:

:ما زلت صغيرًا يا وهدان وعظمك غضيض، العبيد موجودون في كل زمان ومكان، والأسياد موجودون في كل زمان ومكان، ولكن نحن من نغير الأسماء ونجملها يا وهدان السمنهوري، ولولا أن الناس خائفة والرعب ساكن في نفوسهم لكانوا تمردوا عليك وقالوا عنك إنك ضعيف، نحن البشر هكذا يا وهدان، إن احترمت الناس استضعفوك، وإن أخفتهم احترموك، وسترى يا وهدان أن هذا الصلح ليس له أي معنى، وانتهى الكلام".

تنصرف مريم وينصرف وهدان خارجًا من بيته حتى يخرج من الملل الذي يعيش فيه، ويأخذ قسطًا من التفكير بعيدًا عن المنزل والضغوط التي تملأ جدرانه.

فيصل خبر الصلح أيضًا إلى علام، فيخطط علام إلى إفساد هذا الصلح، وهذه أول مرة يتفق علام ومريم على شيء، وهو كيفية الخلاص من الصلح الذي يخطط وهدان ومحمد الجزار لعقده، فتأتي في رأس علام فكرة شيطانية، فيقول لنفسه: "سأتخلص من الجميع، وهدان وعنتر ومريم وزعتر، الكل بضربة واحدة"، فيرسل إلى عنتر يخبره بأنه يريد مقابلته في أمر ضروري، وألا يخبر أحدًا بذلك اللقاء، وأن يقابله عند طريق الساقية القديمة بعد صلاة المغرب مباشرة، فهناك دليل سيقدمه له عن قاتل أخيه وابن عمه".

عنتر يفكر قليلًا: "ربما تكون تلك خدعة من علام ويريد أن يوقع بي"، يجلس طويلًا يفكر، ثم يقرر الذهاب إلى لقاء علام، فيأخذ مسدسه ويعد نفسه للذهاب، فيأتي الميعاد المحدد ويذهب عنتر، فيجد علامًا جالسًا عند الساقية القديمة، فيراه عنتر فيقترب منه بقلق وقد وضع يده على مسدسه خوفًا من غدر علام، فيجلس

الاثنان معًا، ولكن هناك عين ترصد الاثنين، إنه زعتر مختبئًا وسط الحقول ليعرف ماذا يفعل علام وعنتر، فجلس دون حراك ودون أن يشعر به أحد.

فيقول علام لعنتر:

"مرحبًا يا عنتر".

يرد عليه عنتر بنفس الشعور:

"مرحبًا يا عمدة علام، أم نقول يا حاج علام؟".

علام يغضب من قول عنتر، ولكنه أخفى هذا الشعور.

يقول: "أي شيء يا عنتر".

عنتر يريد أن يستفهم عن أسباب إرسال علام إليه، فينظر إليه بعينيه الثاقبتين ويقول:

"لماذا أرسلت إلي؟ وما السر وراء هذه المقابلة؟".

علام:

"هناك شيء تبحث عنه، وهذا الشيء موجود عندي".

عنتر باستغراب من كلام علام:

"ما هذا الشيء الذي أبحث عنه وموجود عندك؟ وهل الحداة ترمي حمامًا يا علام؟".

علام: "احترس من كلامك يا عنتر وأنت تبحث عن قاتل أخيك وابن عمك".

عنتر: "وهل عندك علم بمن قتلهم؟".

علام: "نعم، وأعرف القاتل، وسأدلك عليه ولكن بشروطي".

عنتر: "وما هي الشروط؟"

علام: "إذا أخبرتك عن القاتل سوف تقتله؟".

عنتر: "هذا شيء مؤكد".

علام: "حسنًا، ولكن لي شرطًا واحدًا، هو أن تساندني وتقف بجواري أنت وأولاد موسى جميعًا لكي أكون العمدة".
عنتر:
"كيف ووهدان ما زال العمدة؟".
علام ينظر إلى عنتر ويضحك ضحكات عالية جدًّا ويقول:
"أنت سوف تقتل وهدان".
عنتر مستغربًا: "ولماذا أقتل وهدان؟!".
علام: "ألم تفهم كلامي؟ أنت ستقتل من قتل أخلك وابن عمك".
عنتر ينظر إلى علام متفاجئًا وهو يقول: "أنت تقصد أن وهدان هو من قتل أخي سيد وابن عمي كمال؟!".
علام: "بالضبط، ما يحدث في الكفر الآن كله من أفعال وهدان، هو يأمر زعتر بالتنفيذ، وهو من أمر زعترًا بقتل كمال بسبب ما حدث بينهم في المقهى، وأمره بقتل سيد أيضًا".
عنتر: "وما الدليل؟ أنا لا أريد أن أظلم أحدًا؟".
علام: "أنا الدليل، لقد رأيت زعترًا يدخل دار العمدة وهو يرتدي الملابس السوداء من الباب الخلفي، وعندما سألت من هذا قال وهدان إنه زعتر كان يقوم ببعض الأعمال غدًا سوف تعرفها، وعندما تحدث الناس بمقتل كمال وبأن الشخص الذي قتلهم كان يرتدي ثيابًا سوداء وملثَّما تذكرت كلام وهدان".
فيقول عنتر متأثرًا: "والحاج محمد يريد أن يعقد بيني وبين وهدان صلحًا".
علام: "الحاج محمد يخاف على وهدان لأنه زوج ابنته وهذا ما يهمه ".

عنتر: "انتهى الصلح، ومن اليوم سوف تدق طبول الحرب، ومن اليوم سوف تشتعل نيران الغضب على وهدان، وسوف أساعدك وأنفذ لك شرطك يا عمدة، والآن بدأت أول خطوات الدم".
ويذهب زعتر مسرعًا إلى مريم وهو ينادي: "أين السيدة مريم؟ أين هي؟".
مريم تخرج إلى زعتر وهي تقول:
"ماذا هناك يا زعتر؟".
زعتر:
"هناك مصيبة ستحدث يا سيدتي".
مريم متفاجئة:
"مصيبة؟! وما هي المصيبة؟!".
زعتر:
"علام وعنتر عقدوا صفقة، وعلام أخبر عنترًا أنني أنا من قتلت سيدًا وكمالًا بأوامر من سيدي وهدان".
مريم: "وماذا سيستفيد علام من ذلك؟".
زعتر: "عنتر سيقتل سيدي وهدان ويساند علام حتى يصل إلى كرسي العمودية".
مريم: "علام الحنش كتب شهادة وفاته بأيديه يا زعتر"، فينظر إليها زعتر بنظراته القوية قائلًا: "مفهوم يا سيدتي"، فتبتسم مريم وتقول له وهي تحرك يدها: "سيأتي ميعاده، اذهب أنت يا زعتر ولا تنسَ هذا الكلام".
فينطلق زعتر وتجلس مريم وهي تقول: "بدأت مسيرة عمرك تنتهي يا علام، صبرت عليك كثيرًا، ولكن أنت لا تتعلم أبدًا، فالحنش لا يُصبر عليه أبدًا، يجب قطع رأسه حتى نستريح منه إلى الأبد".

ثم تنادي زعترًا مرة أخرى فيدخل: "أوامرك يا سيدتي".
مـريم: "اذهـب إلى دار عـلام وأخبره بـأني أريـده، في أي وقـت يـأتي سيجدني بالدوار".
فيـذهب زعتر إلى عـلام ويخبره الرسـالة، فـيجلس عـلام محتـارًا وقلقًا من أن تكون مريم علمت شيئًا عن المقابلة التي دارت بينه وبين عنتر، فيجلس مفكرًا طويلًا، ثم يقول لنفسه: "لا، إذا كانت علمت لكانت قتلتني"، ويقرر أن يذهب إليها ليلًا في اليوم التالي.

* * *

الفصل السادس

وكانت من عادة علام أن يذهب كل يوم بعد صلاة العشاء إلى المقهى غرب البلد، وكان لا بد أن يمر من طريق الساقية القديمة، فيخرج علام ويذهب إلى المقهى حتى يجهز بعض الكلمات التي سيقولها لمريم غدًا، ويذهب إلى المقهى ويجلس هناك ويشرب قهوته ويدخن الشيشة، ويجلس طويلًا والأفكار في رأسه تدور، حتى تأخر الليل، فقرر الذهاب إلى البيت، وأثناء عودته والجو جميل والهدوء يخيم على المكان والهواء النقي وسط الحقول، يصل إلى الساقية القديمة، فيخرج له شخص ملثم وهو ينادي: "علام".

فيلتفت علام والذعر يكاد يقتله ويقول: "من؟".

يقول الملثم: "يا علام، دائمًا المكر والخبث فيك، الخيانة يا علام ما جزاؤها؟".

علام مترددًا في الكلام: "خيانة من؟".

الملثم: يا علام، الخيانة جزاؤها الموت"، ثم يطعنه في قلبه بالخنجر ويتناوب بطعناته على عنقه، فيسقط علام قتيلًا ملطخًا بالدماء ولا أحد يدري، حتى أشرق نور الصباح فرأى الناس القتيل والتفوا حوله يسألون من هذا، فقاموا بقلبه فإذا الناس تقول: "الحاج علام قُتل، الحاج علام قُتل"، فيذهب زعتر إلى مريم مسرعًا: "يا سيدتي، يا سيدتي".

مريم: "ما بك يا زعتر؟".

زعتر: "يا سيدتي الحاج علام قد قُتل عند الساقية القديمة".
فيهرع الجميع، وهدان ومريم وزعتر، ويذهبون إلى مكان الحادث، فإذا بعلام ملقى على الأرض غارقًا في دمائه وليس هناك آثار لمن قتله.
يقول الحاج محمد: "لاحول ولا قوة إلا بالله، لقد فسد أمر الصلح كله".
وتحضر الشرطة للتحقيق في الواقعة، ولكن لا جدوى من التحقيق، لا أثر للقاتل، لا دليل على القتل.
فينظر الناس ويهمسون إلى بعضهم البعض: "مؤكد أن الجني هو الذي قتل علام؛ لأنه بنفس الطريقة قد قتل سيدًا، الطعن في القلب والطعن في الرقبة"، وينتهي التحقيق كالعادة وتُدفن الجثة والقاتل مجهول.
ويسيطر على أهل الكفر الفزع والخوف، ووهدان يصيبه حزن على عمه، ويرسل إلى فاتن فتحضر إلى الكفر مع زوجها شريف والحزن يخيم عليها، والدموع تنهمر كالسيل الجارف من عينيها حزنًا على ما أصاب والدها، فتحتضنها نجلاء وتحاول أن تخفف عنها الصدمة، ويجلس شريف مع وهدان ويلتف الأهل جميعًا ليروا ماذا سيفعلون، فإذا بمريم تقول:
"يا أهل الكفر، إننا لن نستقبل عزاء من أحد إلا إذا أُخذ ثأر علام، ولا بد من أن نكشف القاتل".
الحاج محمد: "يا سيدة مريم، من القاتل؟ وثأرك عند من؟".
ترد مريم غاضبة ونيران الشر مشتعلة:
"ثأرنا عند أولاد موسى يا حاج محمد، هم الذين قتلوا علامًا، وأنت تريد أن تعقد صلحًا معهم!".

الحاج محمد: "ما الدليل يا سيدتي؟ لا تتهموا الناس بالباطل؟".

مريم: "لا أحد له مصلحة في قتل علام إلا أولاد موسى، حتى يقولوا أخذنا بثأرنا يا حاج؛ لأنهم يشكون في أن لنا يدًا في قتل سيد وكمال، وكل واحد يذهب ليراعي مصالحه، وعندما نأخذ بالثأر سنقبل العزاء".

فينصرف أهل الكفر وتسيطر عليهم حالة من القلق من أنه ستكون مجزرة كبيرة بين العائلتين ولا مفر منها قريبًا أو بعيدًا، هذا أمر حتمي.

ويدخل وهدان المنزل وهو يقول:

"يا أمي، نحن لا نعرف من قتل عمي علامًا".

مريم ترد بغضب:

"وهدان، ليس لأحد مصلحة في ذلك إلا أولاد موسى".

وهدان مستغربًا من كلام أمه:

"وما المصلحة في ذلك؟ وما الدليل؟".

مريم: "ما زلت طفلًا يا وهدان وتفكيرك لا يتعدى قدميك، انظر إلى بعيد، أولاد موسى انتهزوا فرصة عقدهم صلحًا معك، وجعلوا جميع الكفر يعلم القصة، ثم استغلوا هذه القصة وقاموا بقتل علام بنفس طريقة سيد وكمال؛ حتى لا يشك أحد بهم، وتذهب التهمة إلى الجني الملثم الذي يتحدث عنه الناس، والناس لا تشك لحظة في أولاد موسى؛ لأنهم سيعقدون صلحًا، وهل الذي ينوي عقد صلح يقتل الناس؟ بالطبع هذا لا يُصدق، وهذه كانت خطة عنتر يا وهدان".

وهدان: "ولكن يا أمي بهذه الطريقة الكفر سيمتلئ بالموت".

مريم:

"أنت خائف من الموت يا وهدان؟".
وهدان قائلًا لأمه:
"ومن لا يخاف الموت يا أمي؟ حتى من يقول إنني لا أخاف الموت يكذب على نفسه؛ لأنه لو خُيِّر بين الحياة والموت لاختار الحياة، الكل يحب أن يُخلَّد، ولا يوجد أحد يتمنى الموت أبدًا، فالكل يهاب الموت يا أمي".
مريم ترد على وهدان بحكمة وخبرة الزمن:
"اسمع يا وهدان، ما زلت يا ولدي صغيرًا، وأنا أكثر منك خبرة ودراية، تعلَّم يا ولدي أن الدنيا كلها ليس لها قيمة، وكل ما نفعله سنتركه، سواء أكان خيرًا أم شرًّا، وكل الطرق يا ولدي تؤدي إلى شيء واحد مهما تعددت، وهي الحقيقة الوحيدة التي نعرفها ومقتنعون بأنها آتية، وكل ما سواها تكهنات نحن نتنبأ بها، قد تحدث وقد لا تحدث، ولكن ما نعرف أنه فعلًا سيحدث وسيأتي آجلًا أو عاجلًا هو الموت، الكل ميت يا وهدان، هناك من يموت وتخلَّد ذكراه، وهناك من يموت ولا أحد يذكره بعد ذلك".
وهدان:
"كيف يا أمي؟"
مريم:
"كلمة واحدة يا ولدي، اختر لنفسك عيشة تصنع لك اسمًا، وتاريخًا تقصه الأجيال القادمة جيل بعد جيل، ولا تمت كما تموت الكلاب، مجرد أن تتوارى تحت التراب تُنسى يا وهدان".
تنصرف مريم إلى حجرتها وتترك وهدان حائرًا ومفكرًا في كلام أمه، فتأتي إليه زوجته نجلاء وتراه حزينًا، فتحاول تهدئته، لم يتسرع

وهدان في الحكم على الأمور، ولم يستمع إلى كلام أمه الذي سيشعل نيران الغضب مرة أخرى، فينظر إليها وهدان قائلًا:
"وماذا عساي أن أفعل وأمي هي المسيطرة على كل شيء؟ ولن أستطيع أن أعصيها أو أغضبها لأنها أمي".
نجلاء: "أمرك عجيب يا وهدان، أمك تريدها دمارًا، وتريد أن تدمرك أيضًا".
وهدان: "أمي لا تريدها دمارًا، أمي من وجهة نظرها تريد السطوة والقوة، وأن تصنع لنفسها تاريخًا يتحاكى به الناس على مر الزمان".
نجلاء: "وأنت ماذا ستفعل حيال ذلك؟".
وهدان: "اتركوني وسوف يدبرها المولى عز وجل".
نجلاء تنصرف وهي تقول: "ولكن يا وهدان حافظ على نفسك، واحذر من نار أمك لأنها ستحرقك معها يا وهدان".
فيخرج وهدان إلى حديقة المنزل واقفًا متأملًا منظر الكفر وهو يقول:
"آه يا كفر، على الرغم من نور الشمس أراك أسود، وكأنه قد عشعشت فوقك الغربان، وعلى الرغم من ضحك الناس فأنت مليء بالأحزان؛ لأن الضحكة مصطنعة، الضحكة ضحكة منظر لا ضحكة من القلب يا كفر، والهيبة هيبة رجال وتكون من الجوهر، وليس هيبة جلباب وعمه، هذا كله يا كفر منظر".
ويجلس وهدان طويلًا يفكر حتى يخيم الظلام وهو جالس في حديقة منزله، والحزن يشق قلبه، والأحداث التي تمر بالكفر تشل تفكيره، وليس هناك مخرجًا من هذا الظلام الذي سيحل على

الكفر ما دامت مريم تريد الثأر، وما دامت تسعى إليه، فهناك خراب سيصيب الكل.

* * *

الفصل السابع

وتحضر فاتن وشريف إلى الكفر، وفاتن يسيطر عليها الحزن الذي كاد أن يقتلها، وشريف يحاول أن يخفف عنها بكل الطرق الممكنة ويوضح لها أن هذا أمر الله، ولا راد لقضاء الله، ويخبرها بأنه ذاهب هو وأبوه إلى وهدان ليعرفوا كيف سيتصرف، فأرادت أن تذهب معهم لمقابلة نجلاء، فوافق شريف وذهبوا الثلاثة إلى دار وهدان، فذهبت فاتن مع نجلاء، والحاج محمد وشريف دخلوا المندرة فوجدوا وهدان يجلس والحيرة والألم يجالسانه، والدنيا قد ضاقت أمام ناظريه، وكأنه يتصعد في السماء، ويفكر في حال الكفر، فيلقي الحاج محمد السلام على وهدان فينتبه ويفيق من تفكيره، فإذا بالدكتور شريف وأبيه واقفون، فيطلب منهم الجلوس فيجلسان والحاج محمد يقول:

"إلى متى يا وهدان يا ولدي ستظل هكذا؟ الموت علينا حق يا ولدي، وهذا قدر الله، وقد جعل لكل موتة سببًا".

وهدان متأثرًا يرد والحزن يظهر على كلامه:

"أنت تعلم ما أعانيه من ضغوط، وأني أحمل على عاتقي همومًا كثيرة كأنها صخور من الجبال، ولكني لم أعد أستطيع التحمل".

يدخل شريف في الحديث قائلًا:

"يا وهدان، لا بد أن تكون قويًا ولا تستسلم لليأس، وما تسعى إليه والدتك وتحمسك على فعله ليس له إلا نتيجة واحدة، ألا

وهي الخراب على الجميع، وبحر دماء سوف يغطي الكفر كله، وسيكون سلسال دم مستمر يا وهدان، ويكفي ما سال من دماء".

وهدان:

أعلم كل ما تقوله، وأبوك يعرف ما كنت أنوي فعله، ولكن مقتل عمي علام أفسد كل شيء، جعل ما بنياه يُهدَم في لحظة واحدة، وما سعى إليه أبوك لتحقيقه في شهور دُمِّر في لحظة، الإصلاح يحتاج إلى سنين لتفعله، والخراب يحتاج إلى لحظة واحدة لتنفيذه."

الحاج محمد:

"يا وهدان يا ولدي، هل أنت متأكد أن أولاد موسى هم من قتل عمك؟".

وهدان:

"والله لم أعد أفهم أي شيء، كل الأحداث تداخلت في بعضها، وكلام أمي يقنعني من جانب، وكلامك يقنعني من الجانب الآخر، وأنا أصبحت بين حيرة في أمري، أي الأمرين أفضل؟ كلام أمي أم كلامك يا حاج؟".

شريف ينصح وهدان منبهًا إياه ويقول:

"وأين تفكيرك أنت؟ انظر إلى بعيد يا وهدان، إذا كان عنتر من قتل علامًا كما يشاع في الكفر كله، لماذا لم يعلن عن ذلك؟ وأنت تدري أن عنترًا يبحث عن ثأره، فإذا كان هو القاتل لكان أولاد موسى قد أعلنوا ذلك على الملأ وتلقوا التهاني، وأنت تعرف الثأر في بلادنا مثل الزواج تمامًا، لا بد من إشهاره".

وهدان يرد متسائلًا:

"إذًا من قتل عمي؟ إذا لم يكن عنترًا فمن القاتل؟ وليس لأحد عداوة معنا إلا عنتر وأهله".
شريف يحاول إقناع وهدان بأن عنترًا ليس القاتل قائلًا:
"يا وهدان، ألم تلحظ شيئًا غريبًا؟".
وهدان:
"ما هو هذا الشيء؟".
شريف يخبر وهدان:
"إذا كان عنتر هو من قتل علام فهو من قتل سيدًا وكمالًا".
الحاج محمد: "كيف يا ولدي يقتل عنتر أخاه وابن عمه وهو لم يحضر موتهم؟".
شريف: "طريقة قتل علام الطعنة في الصدر ونفس الطعنة في الرقبة، هي نفس ما تعرض له سيد وكما أن السلاح المستخدم في الثلاث جرائم واحد كما جاء في التقرير".
وهدان: "فعلًا هذا ما حدث، إذًا هناك شخص يريد جعل النيران تأكل الكفر، نيران الثأر والدمار، ومؤكد له مصلحة في ذلك".
شريف:
"هذا هو السر الذي من المفترض أن نتكاتف نحن وجميع أهل الكفر صغارًا وكبارًا للوصول إليه، وكل الأطراف تجتمع لكي تكون يدًا واحدة، فعندما تتكاتف الأيدي سيظهر القاتل ويعرف أنه ضعيف أمام تكاتف الجميع، أما هو الآن فقوي؛ لأنه يرانا متشتتين ومتفرقين يا وهدان".
الحاج محمد:
"فعلًا يا وهدان، وأنت الكبير، ويجب أن تأخذ الخطوة الأولى؛ لأن الكبير يا ولدي هو من يستطيع جمع الناس حوله، الكبير يا

وهدان هو من يسمع لكل الناس ويضحك في وجه كل الناس حتى لو كان الحزن يقتله، ويقرب منه كل الناس، غنيًّا وفقيرًا، لا يفرق بين أحد حتى لا يظهر أنه يبحث عن مصالح شخصية، الكبير صدره درع يحمي الجميع، وبيته مأوى للجميع، وهو مسؤول عن الجميع، هذا هو الكبير الحق يا ولدي، وإياك أن تأخذ قرارًا يلوث يدك بدم، وبعد اكتشاف الحقائق تندم في وقت لا ينفع فيه الندم، كن صبورًا يا ولدي".

وهدان: "ماذا أفعل؟".

شريف:

"يا أبي، لا بد أن تفعل شيئًا، أنت الوحيد القادر على فعله".

الحاج محمد:

"ما هو هذا الشيء الذي لا يستطيع أحد أن يفعله إلا أنا؟".

شريف:

"أن تذهب إلى مقابلة عنتر لتتأكد من أنه ليس له يد في مقتل علام من قريب ولا من بعيد؛ لأن كل كلامنا تكهنات بدون دليل، فإذا كان عنتر بريئًا من الدم فعلًا فقد عرفنا الطريق الذي سنبحث فيه".

الحاج محمد:

"غدًا إن شاء الله سأذهب، وإن شاء الله سيكون خيرًا، والآن أتركك تستريح".

ولكن فاتنًا تستأذن للبقاء مع نجلاء فيسمح لها شريف حتى تخرج مما تعانيه.

الفصل الثامن

والمرأة الصعيدية كما هي لا تغيرها المدنية ولا التقدم، يبقى بداخلها العرف الصعيدي قائمًا، تجده يظهر وقت الشدائد والأزمات، فنجدها في اشد الأزمات قوية صلدة صامدة وكأنها جبل واقف في مهب رياح عاتية، وهكذا ظهرت فاتن بعد مقتل أبيها، ظلت حزينة وهي تفكر بأخذ ثأر أبيها وتقول لنفسها وهي جالسة في غرفة نجلاء -بصوت عال-: "لا بد أن آخذ بثأر أبي، أيضيع دمه لأنه لم ينجب الولد؟ لا، أنا سوف أقتل من قتل أبي بيدي هذه". تسمع نجلاء كلام فاتن ونجلاء فتتعجب وتنزعج من أفكار فاتن وتقول لها:

"فاتن، ماذا تقولين؟ أتريدين أن تلوثي يديك بدم؟ أنت لست فاتنًا التي أعرفها، التي تحب الحياة والرومانسية، أنت قد أصبحت صورة طبق الأصل من مريم بهذا التفكير".

فاتن ترد على نجلاء بجلد وقوة:

"فاتن الرومانسية التي كانت تعشق الحياة ماتت ودُفنت في التراب، لم يبقَ في قلبي إلا نار دم أبي التي تشتعل يومًا بعد يوم، ولن يطفئها إلا دم من قتل أبي".

نجلاء:

"يا فاتن يا حبيبتي اهدئي بالله عليك، واستغفري ربك واجلسي".

تجلس فاتن فتقول لها نجلاء:

"أتعرفين قاتل أبيك؟".

ترد فاتن بحيرة:

"لا، ولكن سوف أعرفه وأعثر عليه عاجلًا أو آجلًا، سيأتي ميعاده وحينها بيدي هذه سوف اقتله قتلة لم يشهدها أحد من قبل جزاءً لما فعله بأبي".

نجلاء:

"وكيف ستعرفينه؟".

فاتن:

"سأعرفه لأننا ليس لنا أعداء كثيرون في الكفر، ولكن عدونا واحد، وهم من يبحثون عن ثأرهم، وهم أولاد موسى؛ لأنهم يظنون أن ثأرهم عندنا، وإلى أن يُكشف من قتل أبي منهم وتثبت إدانته، لن يتغير أي وضع من الأوضاع، كل الأشياء بداخلي ماتت، حتى أحني يدي بدم من قتل أبي".

نجلاء:

"لا إله إلا الله، اهدئي وكل شيء سيكون خيرًا إن شاء الله، ووهدان وأبي وشريف يبحثون عن القاتل؛ لأن معرفته ستحل ألغازًا كثيرة، والآن استريحي واهدئي".

ويستمر وضع الكفر في غليان شديد أيامًا، وكأن اليوم لا يمر، كل يوم صورة من اليوم السابق له، لا تغير، لا خطوة نحو الأمام، كل شيء ثابت، والحاج محمد يذهب إلى ديار أولاد موسى لمقابلة عنتر؛ لأنه هو الوحيد الذي لديه الحقيقة، فيذهب فيجد عنترًا جالسًا يفكر، فيدخل ويلقي السلام، فيقف عنتر ليسلم عليه، ثم يجلس الاثنان معًا والحاج محمد يقول:

"يا عنتر يا ولدي، لقد حضرت اليوم لأسألك سؤالًا واحدًا، إجابة هذا السؤال ستترتب عليها أشياء كثيرة يا ولدي، ولكن قبل أن تجيب يا ولدي أرجوك أن تتحرى الصدق في القول".

عنتر:

"ما هو السؤال يا حاج محمد؟ وإن شاء الله سأجيب عنه بكل صدق مهما كان السؤال".

الحاج محمد:

"ألك يد في مقتل علام؟".

عنتر:

"والله يا حاج محمد ليس لي يد، لا من قريب ولا من بعيد، بمقتل علام".

الحاج محمد:

"كنت متأكدًا من براءتك من دم علام، ولكن أحببت أن أسمعها منك يا ولدي".

عنتر يوضح حقيقة للحاج محمد قائلًا:

"وكيف أقتل علامًا وهو من كان سيدلني على القاتل، وكان بيننا اتفاق على ذلك".

الحاج محمد متعجبًا من هذا الكلام:

"كيف يعرف علام القاتل؟ وماذا سيستفيد علام من كشف القاتل؟".

عنتر:

"لقد وعدني أن يدلني على القاتل، ولكنه قد طلب مقابل ذلك طلبًا".

الحاج محمد:

"علام ثعبان كبير لا يقدم شيئًا بدون مقابل، ولكن ما هو ذلك الطلب؟".
عنتر:
"لقد طلب أن أسانده أنا وعائلتي جميعًا لكي يحصل على كرسي العمودية".
الحاج محمد:
"وكيف يكون علام عمدة ووهدان هو العمدة؟".
عنتر:
"علام أخبرني أن القاتل هو وهدان، ربما لم يقتل بيده، ولكن هو من أمر بتنفيذ القتل".
الحاج محمد:
"لا يا ولدي، وهدان لم يقتل أحدًا، وإذا كنت أنت قد قتلت علامًا، فوهدان قتل سيدًا وكمالًا".
عنتر:
"إذًا لماذا فعل علام هذا؟".
الحاج محمد:
"علام أراد أن يتخلص منكم أنتم الاثنين، بأن يخبرك أن القاتل وهدان، فتذهب أنت فتقتل وهدان ويتم القبض عليك، وبذلك يصبح هو العمدة، وكذلك لإفساد الصلح؛ لأن الصلح سيكون في صالح الجميع، وعلام لا يرضيه ذلك، علام كان يريدها مذبحة حتى يظهر وهدان أنه ضعيف وغير مسيطر على الكفر، ولا يصح أن يكون عمدة".
عنتر:
"إذًا كانت تلك خطة علام، أن يسقط الجميع بضربة واحدة".

الحاج محمد:
"علام يا ولدي محراث شر، يفعل أي شيء لتحقيق أغراضه، ولا يهمه أحد، ويدوس على الجميع ليصل إلى ما يريد، ولكن ربك كان له بالمرصاد، أراد حفر حفرة لوهدان فوقع فيها".
عنتر: "إذًا هناك شخص وراء كل ذلك".
الحاج محمد:
"نعم يا ولدي، وهذا ما قاله وهدان، وقال لا بد أن نتكاتف جميعًا للوصول إلى الحقيقة، وأرسلني إليك اليوم لنعرف الحقيقة في مقتل علام ونتأكد أنك بريء من دمه".
عنتر:
كما قلت لك، أنا بريء من دم علام، وسأبحث معكم عن القاتل حتى نجده ونخلص الكفر من شره".
وما كاد ينتهي حديث الحاج محمد مع عنتر حتى سُمع صياح في الكفر يقول: "الرئيس مات"، فذهل الجميع وخرجوا مهرولين على هذا الخبر المفزع، وليل أسود قد لبد سماء مصر، وأصاب الجميع الحزن، حتى مريم على الرغم من قوتها فقد حزنت حزنًا شديدًا على فراقه، والحاج محمد ينظر إلى الكفر وهو يقول: "ما لنا فرحتنا لا تكتمل دائمًا، عمرها قصير يا عنتر يا ولدي"، فيجلس عنتر والحاج محمد والحزن يملأ أعينهم.

❋ ❋ ❋

الفصل التاسع

هكذا صارت الأمور في الكفر بعد الحزن الشديد الذي أصابهم، ولكنهم لم ينسوا أبدًا هذا الملثم الذي سعى لخراب الكفر، والكل يريد الوصول إلى القاتل الحقيقي، هذا الملثم المجهول، ويريدون الوصول إليه في أقرب فرصة لإنهاء حالة الذعر التي تنتشر في الكفر، وتكف مريم وزعتر عما يفعلونه في الناس من إهانات وظلم، والكل يشاهد ما يحدث ولا يستطيع الكلام؛ لأن الخوف قد كبل الألسنة وأعمى الأعين، ومريم تشجع زعترًا وتأمره بالاستمرار في التعامل مع الناس بكل قوة وألا يرحم أحدًا، مما أثار ذلك زعزعة امنية كبيرة جدًّا، والكل ينظر إلى الأمن على أنه غير قادر على اتخاذ أي إجراء في إنهاء الفوضى، فتنعكس صورة الكفر في أسوء أحوالها إلى المسؤولين حتى ينتعش الأمن مرة أخرى، ويخرج من الكسل الذي سيطر عليه فترات من الزمن، فتُعمل دوريات أمنية مكثفة على الكفر، ويتم إجراء مراقبات على جميع الأطراف المتخاصمة؛ حتى يعرفوا ما يدبرون، فكاد الأمن أن يضع حدًّا لتلك الأحداث التي تجري، فتحضر قوة من الشرطة وتذهب إلى دار العمدة بصفته ممثل الحكومة، ويطلب من جميع الأطراف المتخاصمة إنهاء تلك النزاعات، وأنه لا بد من الوصول إلى حل يرضي الأطراف كافة، ومن يعترض سيتم اعتقاله فورًا.

كذلك أخبرت الشرطة جميع الأطراف المتخاصمة بعدم مغادرة الكفر لأي سبب من الأسباب دون الرجوع إلى المركز.

وتنهي القوة مهامها وتخرج من الكفر وترسل بعض الأعين لمراقبة وهـدان وزعتر وعنتر مراقبـه دقيقـة، ونقـل جميـع تحركـاتهم بالتفصيل الدقيق، ولا يغيب أحد من الأطراف عن أعين المراقبين لهم، فيمل عنتر من الجلوس وحيدًا بمنزله ويقرر الذهاب إلى القهوة غرب البلد -هذه القهوة كانت تعمل بعد صلاة العشاء، ويبدأ الناس في التدفق إليها من أنحاء الكفر كافة - فيخرج ذاهبًا إلى هناك وأعين الشرطة تتبعه وترسل التعليمات أولًا بأول، وتُرصد تحركات عنتر، فيمر من طريق الساقية القديمة، وهنا يقف عنتر قليلًا وينظر يمينًا ويسارًا وهو يقول لنفسه:

"هذا المكان شاهد على كل الأحداث، وهذا المكان هو الذي يعرف القاتل، وسمع جميع الحوارات التي دارت، يا ليتك تنطق وتجيب لكي تستريح النفوس الهائجة، وتمحي موجه الغضب العارمة".

ثم يستمر في طريقه ويذهب إلى المقهى ويعتزل الناس جميعًا، فيجلس وحيدًا مفكرًا في كل الأحداث بعيدًا عن الضغوط؛ حتى يستقر على رأي يكون في الصالح، فيمكث طويلًا ويمر عليه الوقت سريعًا والأفكار تأخذه في بحرها، حتى أوشكت القهوة على الإغلاق، فنظر فلم يجد أحدًا، فيقوم ليرجع إلى بيته ويعود من نفس طريقه، فإذا بصوت من خلفه يناديه، فيلتفت عنتر فإذا بالملثم هو من يناديه، فيرد عنتر متفاجئًا:

"أنت؟ أنت الذي يبحث عنك الجميع؟ ومن يثير الرعب في النفوس؟ وقاتل سيدًا وكمالًا وعلامًا وغيرهم؟ اكشف عن وجهك القذر حتى أعرفك وسوف أقتلك بيدي".

الملثم يرد على عنتر ضاحكًا:

"ما زال الوقت مبكرًا لكي تعرفني يا عنتر، تبحث هنا وهناك ولكني أقـرب الأشـخاص لـك، ولكـن لا يسـتطيع معرفتي أحـد أبـدًا، وستظل النار تحرق في الكفر هكذا دومًا، وما تفعله الشرطة من تهديدات وأوامر بالقبض والاعتقال أشياء معروفة، وما يسعى إليه محمد الجزار في عقد الصلح لن يفيد يا عنتر ما دمت أنا موجودًا، كل شيء باطل، وكل الأدلة ميتة، وافهم يا عنتر، أراك تريد أن تلحق بسيد وكمال وعلام يا عنتر، ابتعد عن الكفر واتركه في حاله، الناس راضية وصامتة، مفهوم يا عنتر؟ وسيكون بيننا لقاء قريبًا، ولكنه لقاء لن يكون فيه كلام، بل سيكون فعلًا يا عنتر"، فإذا بصوت يقول: "من هناك؟"، فيلتفت عنتر إلى الصوت، وعندما يلتفت إلى الملثم يجده قد اختفى فجأة، ولكن من هو؟ زادت الحيرة في قلب عنتر، وتهديده لعنتر بالقتل زاد الأمر سوءًا، يذهب عنتر إلى منزله ويجلس ليفكر في هذا الكلام، فمكث على هذا الحال حتى أشرقت الشمس، فخرج مسرعًا إلى بيت الحاج محمد الجزار وطرق الباب ففتح له وأدخله المندرة وهو يسأله: "ماذا حدث يا عنتر؟ هل هناك شيء؟".

عنتر:

"يا حاج، أثناء رجوعي ليلًا من القهوة أوقفني الملثم وأخبرني أنه لن يكف عن إيذاء أهل الكفر أبدًا، وطلب مني الرحيل من الكفر، وإلا سوف يقتلني، ماذا أفعل؟".

الحاج محمد:

"يا عنتر يا ولدي، هذا الشخص الذي يريد الخراب للجميع شعر بضعفه، وشعر بأنه قد اقترب موعد سقوطه بتكاتفك ووقوفك مع وهدان في البحث عن القاتل، ودخول الحكومة في الأمر زاد

الموقف قوة أكثر، فأصبح هو محاصر، الشرطة من جانب وأهل الكفر من جانب آخر، يا ولدي، لا تخرج ليلًا، وكن حذرًا الأيام القادمة؛ لأن الأيام القادمة سيكون بها مفاجآت كثيرة يا ولدي"، ويستأذن عنتر ويذهب إلى بيته.

فيصل الخبر إلى المركز فيقومون بتكثيف الأمن بالكفر، وعمل دوريات أمنية مستمرة حتى يضيقوا الخناق على المجرم الملثم، حتى لا يجد طريقة أمامه إلا أن يظهر نفسه، فيقرر الحاج محمد بعد أن صلى صلاة الظهر أن يذهب إلى عنتر، وكان الجو يميل إلى الحرارة، ولكنه قد قلق على عنتر لأنه لم يظهر اليوم، فخشي أن يكون قد أصابه مكروه، وكانت الأرض قد زرعت بالذرة التي غطت الأرض وارتفعت كثيرًا، وهو يسير في الطريق خرج له الملثم وهو يلوح بخنجره ويقول له:

"يا محمد يا جزار، جعلت نفسك كبيرًا ومصلحًا اجتماعيًّا وتسعى لحل المشكلة بين وهدان وعنتر؟ هذا أبعد شيء يمكن أن يحدث، ما دمت موجودًا كل شيء سيسير حسب ما أريد أنا".

محمد الجزار:

"ألست خائفًا وأنت خارج في النهار؟ أنت شخص جبان متستر وراء الملابس التي تغطيك لأنك لا تستطيع كشف نفسك، أنت مثل الفأر تحب أن تعيش داخل الجحور؛ لأنك إن خرجت ستصيدك الصقور والقطط".

يرد الملثم على محمد الجزار غاضبًا من كلامه:

"محمد يا جزار، احترس من كلامك فقد يقود إلى مقتلك أو مقتل ابنك، وأنت تعرف أني لا أهدد، أنا أنفذ مباشرة".

محمد الجزار: "هذا أبعد شيء يمكن أن تفعله، وسوف تنكشف حقيقتك، ويستريح الكفر من شرك".
وأثناء الحديث إذا بقوات الشرطة تحيط المكان من كل جانب، فيشعر الملثم بذلك فيدخل بين الذرة، فتطوق القوات الأراضي كلها بحيث لا يخرج أحد منها ولا يدخل إلا تحت إشراف القوات.
ينادي قائد القوات أهالي الكفر الموجودين داخل الأراضي بالخروج، وألا يبقى أحد، ومن يبقى عليه أن يتحمل مسؤولية نفسه وسيتم القبض عليه، فيخرج الجميع مهرولين خارج الحقول، ولم يبق أحد، فتدخل القوات الأراضي الزراعية ويفتشونها تفتيشًا دقيقًا، فلم يجدوا أحدًا، فإذا بالضابط يقول: "خرج هذا الملثم بين الناس ولم نشاهده ولم نعرفه، ولكنه أوشك أن يسقط، ولابد أن يسقط".
محمد الجزار مخاطبًا نفسه:
"هذا الصوت ليس بغريب عليَّ، لقد سمعته في وقت سابق، هذا الصوت يشبه صوت زعتر، إذًا زعتر هو الملثم؟ ولكن كيف نثبت ذلك؟ ومن الذي يخطط لزعتر؟ هل وهدان أم مريم؟ مؤكد أنها رأس الشر مريم هي من تخطط وتدبر كل ذلك".
فيذهب زعتر إلى مريم بعد رحيل القوات وانصراف الجميع ليخبرها بما حدث، فيقول لها: "يا سيدتي لماذا لم تحضري؟".
مريم: "أحضر إلى ماذا؟ ماذا حدث هناك؟".
زعتر:
"أوشكت الشرطة القبض على المجرم الملثم اليوم يا سيدتي".
مريم:
"كيف؟ وهل ظهر الملثم في النهار؟!".

زعتر: "ظهر لمحمد الجزار وحذره أنه إذا استمر فيما يفعله سيقتله ويقتل ابنه شريف".

مريم: "كيف حصل ذلك؟ وماذا فعل محمد؟".

زعتر: "الحكومة كانت تراقبه، فلما ظهر الملثم هجموا عليه وفر هاربًا دون أن يلاحظه أحد واختفى في الأرض، ثم خرج وسط الناس دون أن يلاحظه أحد، هذا الشخص خطير وذو عقل كبير".

مريم: "اذهب يا زعتر وتفقد الأمور".

وهكذا تسير الأمور في الكفر، الكل يروى قصة الملثم، وكل واحد يرويها بطريقة مختلفة، يزيد عليها أو ينقص، وتتناقل الأخبار وتزداد النيران اشتعالًا، والرعب يكشر عن أنيابه، والناس قد بدأ الخوف يتملكها؛ حيث إن الملثم كان لا يظهر إلا ليلًا، أما الآن فيظهر نهارًا أيضًا، وذلك شيء خطير يهدد الكفر كله".

ودار سؤال واحد في أذهان الجميع: "من هو الملثم؟ إذًا هو واحد من أهل الكفر استطاع أن يخدع الجميع وخرج من بيننا، لأن كل الموجودين بالأراضي هم من أهل الكفر، ولكن كيف سنكشفه؟ لا بد من حل"، ويبدأ الجميع في البحث والتفكير، ولكن الملثم لم يظهر مرة أخرى لأحد؛ لأنه علم أنه إن ظهر مرة أخرى سيوقعون به لا محالة، فقرر الاختفاء وعدم الظهور حتى يستقر الوضع، فيتقابل عنتر مع الحاج محمد ويقول له:

"والله يا حاج لو كان الأمن بهذه القوة والسيطرة على الأوضاع من البداية ما سالت كل هذه الدماء، هل كان لا بد من إسالة الدماء وهدر الأرواح لكي يتحرك المسؤولون؟".

فينظر إليه الحاج محمد ويقول:

"يا عنتر يا ولدي، المسئولون كيف سيعرفون القاتل والناس كل كلامها عن القاتل خرافات، ويعتقد الناس أن القاتل جني، وفي جميع التحقيقات كانت إجابات الناس واحدة، القاتل جني ملثم، إذًا الدولة وحدها لن تفعل شيئًا، لا بد يا ولدي من تكاتف جميع الأيدي، كبارًا وصغارًا، رجالًا ونساءً، للوصول إلى الحقيقة، هذا هو الحل الوحيد، والآن يا عنتر أنا تأكدت أن القاتل شخص من أهل الكفر، ولكن من هو؟ لأنه لو كان غريبًا لتعرفنا عليه بسهولة أثناء خروج الناس من الذرة والأمن يوقفهم".

عنتر: ولكن كيف سنصل إلى القاتل؟ سؤال نطرحه كثيرًا والإجابات مجهولة، لقد مللت، أشعر وكأننا ندور في دوائر ليس لها نهاية، ندور ونرجع إلى نفس النقطة التي بدأنا منها".

ينظر الحاج محمد إلى عنتر وقد تسلل اليأس إلى نفس عنتر، فيقول له الحاج محمد:

"يا عنتر، هذا ما يريده المجرم، أن يتسلل اليأس إلى نفوسنا جميعًا، فبذلك يحقق انتصاراته، ولكن يا عنتر اعلم أن لكل مجرم غلطة ستوقعه أيامه وجرائمه فيها، وستأتي هذه اللحظة التي سيقع فيها وتنكشف حقيقته"، ويسير الحاج محمد وعنتر وسط المزارع المزينة بالخضرة والبهجة، كلٌّ ذاهب إلى داره لينتهي هذا اليوم أيضًا كغيره من الأيام، ولم يصل أحد إلى أي شيء.

ويذهب الحاج محمد إلى بيته ويفتح الباب، فيجد زوجته في انتظاره وهي قلقة جدًّا عليه، وما سمعته حتى قالت: "حمدًا لله على سلامتك يا حاج، لقد قلقت عليك، هل أصابك مكروه؟".

فينظر إليها الحاج محمد ويقول:

"ما بك يا فردوس؟ وما هذا القلق الذي يظهر عليك؟ أنا بخير لم يصبني شيء، ولكن هذا المجرم أراد أن يحذرني لأكف عن السعي خلفه وإلا قتلني"، ولم يذكر لها تهديده بقتل ابنها شريف؛ لأن ذلك سيكون فاجعة على قلبها.

فتنظر فردوس وتقول:

"وماذا استفدنا من كل ذلك إلا وجع الرأس والهم؟ لقد كنا بعيدين عن المشكلات، أولاد موسى والعمدة مشاكلهم لا تنتهي، أرجوك ابق بعيدًا، فلو أصابك شر ماذا أفعل أنا؟".

الحاج محمد:

"يا فردوس، لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، واعلمي أن المجرم تمرد وزاد في تمرده؛ لأن الناس كلها في الكفر تقول نفس كلماتك: (لا شأن لي) هذه الكلمة تجعل الشر يزداد ويتكاثر ويكون كالنار التي تلتهم الهشيم، ويكون كالمرض الذي يصيب الخير فيضعفه، ولكن الناس لا بد أن تصبح أقوى وتخرج وتقف في وجه الشر حتى تقضي عليه، ولا تخافي يا فردوس، ما دمت أسير في الخير فالله سوف يحمينا".

فردوس:

"ونعم بالله يا حاج، إنما أقول ذلك من قلقي عليك".

الحاج محمد:

"أعرف يا فردوس، هلا تركتموني وحدي بعض الوقت لكي أصلي ثم نكمل الحديث؟".

فردوس:

"تفضل يا حاج، وأنا سأذهب لأجهز العشاء".

يذهب الحاج محمد لكي يتوضأ ويغير ملابسه ثم يخرج ويذهب إلى المندرة، فيصلي ثم يخرج، فإذا بفردوس قد وضعت الأكل على الطاولة، وما كاد أن يجلس حتى طرق أحدهم على الباب، فيقوم الحاج محمد ليفتح الباب، وتقف فردوس منزعجة، فيفتح الباب فيجد نجلاء ومعها وهدان وتقول له: "ماذا حدث لك يا أبي؟ هل أنت بخير؟ هل أصابك مكروه؟"، فينظر الأب ويقول لها: "رويدك رويدك، اهدئي أنا بخير، تفضلوا ادخلوا، تفضل يا وهدان"، فتدخل نجلاء ووهدان وتسلم على والدتها ويجلس الجميع على طاولة الطعام، ولكن وهدان كان حزينًا، فينظر إليه الحاج محمد ويقول:

"تفضل الأكل يا وهدان -مداعبًا- أم أن طعام حماتك لم يعجبك؟" كان يريد أن يداعبه لكي يكسر الحزن الذي بداخله.

فيرد وهدان:

"والله يا حاج ليست لي رغبة للأكل".

فتنظر فردوس وتقول له:

"يا وهدان يا ولدي، مد يدك وكل، أم أن أكلنا لم يعجبك؟"، يريدون أن يخرجوه من حزنه، فيمد يده فيأكل بضع لقيمات، ثم يتناول كوب الماء فيشربه ويحمد الله، ثم يقوم وهو يقول:

"يا حاج، أنا سوف أنتظرك بالداخل في المندرة".

يقول الحاج محمد:

"سأذهب معك"، فيرد وهدان: "لا والله، لا تقم من على الأكل، بل أكمل أكلك يا حاج".

يـدخل وهـدان المنـدرة وينهي الحـاج محمـد أكلـه فيقـوم ويقـول لزوجتـه: "أحضـري لنـا الشـاي في المنـدرة"، ويـدخل المنـدرة تاركًا نجلاء وأمها يتحدثون.

وتصب الأم الشـاي وتـذهب بـه نجـلاء إلى المنـدرة وتضـعه أمـام وهـدان وأبيهـا، ثـم تخـرج وتغلـق بـاب المنـدرة خلفهـا، وتتـركهم يتحدثون، فينظر الحاج محمد إلى وهدان وهو يقول له:

"ما بك يا وهدان؟ لم أرك أبدًا هكذا".

وهدان:

"والله إن أمر هذا الملثم قد حيرني وشل تفكيري، كنا معتادين أن يظهر ليلًا، والآن يظهر نهارًا، وكأنه يريد أن يبعث برسالة مفادها أنه لا يهمه أحد، ولا يخاف من أحد، ولكن من هو؟".

الحاج محمد:

"يا ولدى، هذا المجرم جبان، وعنتر كان يكلمني في نفس الموضوع، الكل حائر يا ولدي، والكل يحتاج أن يعرف من هو حتى يستريح الجميع وتهدأ الأنفس الثائرة وتنطفئ نيران الشر الموقدة".

وهدان:

"أنـا أوافقـك الـرأي، ولكـن هـذا سـيأخذ وقتًـا طـويلًا، وأخشـى أن يرتكب هذا المجرم جريمة أخرى".

الحاج محمد:

"أنت خائف من أن ينفذ القاتل تهديده ويقتلني؟".

يسكت وهدان ولا يجيب، والحاج محمد ينظر إليه، ثم يقول:

"يا وهدان، لا تقلق، هذا القاتل لن يقتلني لأنه أصبح خائفًا، وهو ذكي، فإذا قتلني تضاف جريمة أخرى إلى جرائمه، والأمر أصبح تح

أعين الحكومة، لا هروب هذه المرة، سوف يخطئ هذا المجرم وخطؤه سيكشفه وسيوقِع به".
وهدان:
"أتمنى ذلك، والآن أستأذن؛ فالوقت قد تأخر"، فيخرج الجميع وتخرج نجلاء ويسير وهدان وزوجته إلى دارهم، وكان الدار في نفس الشارع ليس ببعيد، وعندما اقترب وهدان من المنزل شاهد أحد يدخل المنزل، فأدخل زوجته وأخرج مسدسه وظل يلتف حول المنزل، فلم ير أحدًا، ثم مكث قليلًا في مكان بحيث لا يراه أحد، فيشاهد هذا الشخص، فيقول وهدان: "قف مكانك وإلا أطلقت عليك الرصاصة".
فيقف مكانه وهو يقول: "لا، لا تطلق الرصاصة، هذا أنا يا سيدي".
ويلتفت فإذا به زعتر ينظر إليه.
وهدان:
"لماذا تدور حول المنزل؟ أهناك شيء؟".
زعتر:
"لا يا سيدي، هذه أوامر السيدة مريم، هي أخبرتني ألا أترك المنزل وأدور حوله من وقت لآخر، ربما حاول أحد فعل شيء".
يتركه وهدان ويدخل المنزل وينتهي هذا اليوم كغيره، ليس هناك جديد، لا تغير، لا حراك للأحداث، كأنها أجساد ميتة وقد تعفنت بمرور الزمن عليها.
ويدخل وهدان غرفته ويستلقي على سريره من التعب والإرهاق والفكر الذي يحمله، ويأخذه النوم، وما لم يلبث أن تغمض عيناه فإذا بأبيه يقف أمامه ويناديه ويقول له:

"لماذا فعلت هذا يا وهدان؟".
فيرد عليه وهدان:
"ماذا فعلت يا أبي؟ أنا لم أفعل شيئًا أبدًا".
فيرد أبوه ويقول:
"ألم أعلمك يا وهدان أن تعامل الناس بالحب لكي تكسب كل الناس؟ ما تفعله أمك يا وهدان هو الشر بعينه، وأنت تساعدها وتجعلها تتمادى فيه يا ولدي، كان لا بد عليك أن تمنعها وتكون قويًّا وتكسر قيود سيطرتها عليك، مريم جعلت كل الناس تكرهك يا وهدان ويحلمون بيوم الخلاص منك، لا يغرنك ضحكهم لك عندما يرونك، فعندما تدير ظهرك لهم يلعنوك يا ولدي، فليس كل من يضحك لك صديق ولا كل من يأنبك عدو، ليتك يا وهدان سرت على درب أبيك وعاملت الناس مثل أبيك، وتركت أفكار أمك الهائجة في رأس الشيطان، واعلم يا ولدي أن ما تفعله أمك هو الشر بعينه، مريم يا وهدان شيطان في صورة امرأة، اترك الشر يا وهدان وتعلق بحبال الخير؛ لأنها هي النجاة". فيقوم وهدان فزِعًا من نومه وهو يقول:
"لا إله إلا الله".
فتفزع زوجته نجلاء وتقول:
"ما بك؟".
فينظر إليها قائلًا:
"حلم غريب".
فتحضر له كوبًا من الماء فيشربه وتطلب منه الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وتطلب منه أن يقص عليها ما رأى، فيخبرها أن

والده زاره في المنام وحذره من أفكار أمه؛ لأنها تسعى إلى الخراب وتدمير البلدة وحرقها بنار الكراهية".

فتنظر إليه نجلاء وتقول:

"هذه بشارة خير يا وهدان، ودليل على أنك لا بد أن تترك أفكار أمك الشريرة"، فيقوم وهدان ويستعد للخروج، فتسأله زوجته: "إلى أين؟".

يرد عليها:

"سوف أخرج إلى خارج المنزل حتى أستنشق الهواء"، ويخرج من غرفته فإذا بصوت يناديه، فينظر فإذا بأمه تقول له:

"ما بك يا وهدان؟ لونك مخطوف وكأن شيطانًا يركض خلفك".

فيرد وهدان عليها: "لا يا أمي، ولكني قد شاهدت حلمًا أفزعني".

مريم:

"حلم؟ وما الذي أفزعك في هذا الحلم؟".

وهدان:

"لقد رأيت أبي".

مريم: "رأيت أباك؟ وماذا في هذا؟".

وهدان: "يا أمي، أبي غاضب مني لأنني لم أسر على طريقه في معاملة الناس بالحب واللين، كما أنه ..."، سكت ولم يكمل كلامه خوفًا من أمه.

فترد مريم:

"كما أنه ماذا؟ تحدث يا وهدان".

وهدان:

"لقد رأيت أبي وقد أخبرني أن ما تسعين إليه هو خراب ودمار وأفكار شيطانية سوف تهلك الكفر كله وتحرقه".

مريم:

"هو أخبرك بذلك؟ أبوك يا وهدان كان طيبًا، ولكن الطيبة في هذا الزمن يا ولدي لا تنفع، هذا الزمن زمن القوة يا وهدان، الناس تغيرت عن عهد أبيك، كان يوجد هناك تقدير واحترام، ولكن في هذا الزمن لا تقدير ولا احترام، بل الخوف يا وهدان والقوة هما ما ينفعون في هذا الزمن يا ولدي، أنا سأذهب إلى غرفتي، وأنت اذهب لكي تستريح"، فيذهب وهدان خارج الدار وقد أُذن لصلاة الفجر، فجلس في الهواء الرطب الجميل مفكرًا في كلام أبيه.

ويشرق الصباح وتبدأ الشمس بالظهور لتزيل أشعتها الظلام، ولتنير الكون، والكل يبدأ في السعي للذهاب إلى عمله، فتنظر نجلاء من النافذة فتجد وهدان ما زال جالسًا بالخارج، فتخرج إليه وتناديه: "

ألن تدخل لكي تتناول الفطار؟"، فيذهب إلى الداخل وتأتي أمه وهي تنظر إليه قائلة: "يا وهدان، أما زلت تفكر في كلام أبيك؟ انس يا وهدان وفكر فيما هو آت، هذا هو الأهم يا ولدي، كلام أبيك لا يصح في هذا الزمن، وكما قلت لك سابقًا، زمن الطيبة مات يا وهدان والباقي هو زمن القوة".

فيستأذن وهدان للخروج لتفقد أحوال الكفر، فيمر على الناس والأعين تنظر إليه، ولكن شمس الابتسامة قد غابت، تلك التي كانت تنير هذه الوجوه، فيقول لنفسه: "كلام أبي حقيقي، تلك الوجوه كانت دائمًا مبتسمة، نعم يا أبي، تفنى الأجساد وتبقى الذكريات في الأذهان خالدة يتوارثها جيل من بعد جيل، فمن يرد الخراب وكراهية الناس يحفر لنفسه قبرًا يدفن فيه نفسه، ومن

يرد الخير والتعمير فليبنِ لنفسه هرمًا يخلد به اسمه"، ويستمر وهدان في السير حتى يتقابل مع الحاج محمد وابنه الدكتور شريف، فيقفوا يتحدثون، وقص وهدان ما شاهده للحاج محمد في نومه.

فقال الحاج محمد:

"هذه بشارة خير يا ولدي، وهذا إنذار أيضًا، إن تلك الرؤيا إن دلت، دلت على أن هناك خطأ ولا بد من إصلاحه".

وهدان في حيرة من أمره:

"والآن أوشك عقلي أن يذهب من كثرة التفكير، وما الإنذار في هذه الرؤيا؟".

الحاج محمد:

"يا وهدان، أبوك يحذرك من كره الناس لك؛ لأن أباك كان يعامل الناس بالطيبة والحب، ولذلك كسب ودهم وأصبح حكاية ومثلًا يحدثون به أولادهم، وأنت يا وهدان عاملتهم بالشدة والعنف".

وهدان:

"لم أعاملهم بالشدة والعنف وأنت تعلم".

الحاج محمد:

"يا وهدان، تفعله مكرهًا، ما تقوم به أمك وزعتر بوادر شر، ولكن الناس تعرف أنك العمدة وأنت المسؤول عن ذلك، ويجب أن تعامل الناس باللين والحب، ولكن المهم في هذا الوقت هو الوصول للقاتل؛ لأنه بذلك تنكشف كل الحقائق".

الدكتور شريف:

"فعلًا هذا هو المهم الآن ، ولكن نحن لم نتوصل إلى أي شيء، فلا بد أن نواصل ونستمر"، وينتهي اليوم وتشرق الشمس ولكنها

شمس تحمل هواء الحرية، وذهب الجميع إلى عمله وعاد شريف قريبًا من الساعة الواحدة ففتح الراديو ليستمع إلى بعض الأغاني وهو متكئ على الأريكة بغرفته متدبرًا أحوال الكفر وما يمر به من أزمات، وهو يقول لنفسه: "متى نقضي على هذا الحزن والغم المسيطر على الكفر؟"، وفجأة يطرق باب غرفته فيعتدل في جلسته وهو يقول: "تفضل". فيدخل أبوه ويسأله: "ما بك؟ هل أصابك مكروه؟"، يرد شريف: "المكروه أصاب الكفر كله، ألم تشاهد حال الكفر؟ وكأن غربان الحزن لم يحن لها الوقت لمغادرته"، فيجلس الأب على كرسي في الغرفة بجوار ابنه وهو يهدئ من روعه ويقول له:

"يا ولدي، لا تيأس، ومهما طال الليل اعلم أن هناك شمسًا مشرقة ستأتي قريبًا، والشر مهما كان قويًا فالخير أقوى، ولا تنس أن بعد العسر يسرًا، والآن سأتركك".

❋ ❋ ❋

الفصل العاشر

ويسير كلٌّ في وجهته يقصد أرضه وسط الحقول الخضراء، والناس تعمل بالحقول ولكن الوجوه عابسة وحزينة، فيهب الليل وتغرب الشمس، وكل الموجودين في الحقول قد هموا بالذهاب إلى المنزل، من أنهى عمله ومن لم ينهه، الكل قبل أذان المغرب يترك الحقول بعد أن كانت الناس تتناول فطور رمضان وتعود لكي تعمل في الحقل إلى أوقات متأخرة من الليل، وها هو رمضان يأتي إلينا وتستبشر الناس به خيرًا، عسى أن تُزال الغمة الكبرى من مصر كلها، وأن تُزال غيمة الحزن والرعب التي أظلت الكفر رافضة أن تتركه أبدًا، ولكن ما زال الفزع المنتشر في الكفر مستمرًا، وجميع الجهات لم تصل إلى حل أو كشف عن شخصية المجرم، ولكن الكل ما زال عنده إصرار وعزيمة للكشف عن شخصية المجرم، وما زالت المراقبات قائمة، وأعين الحكومة في كل مكان، والدوريات مستمرة للوصول إلى أي دليل يمكن الأمن من الوصول إلى الحقيقة، فذهب الجميع إلى منزله، والدكتور شريف ذهب إلى البيت، فجلس مع أبيه يفكرون في شخصية هذا المجرم الغريبة، ولكنه تفكير بدون جدوى، وينتهي اليوم كعادته وليس هناك جديد. ويبدأ يوم جديد والناس تسأل: "هل غدًا العيد أم نهاية رمضان؟"، ويعمل كلٌّ في وجهته، من يعمل في الحقل، ومن يذهب إلى عمله بالمركز، ولكن هناك قلقًا وحيرة تسيطر على جميع أهل الكفر، وكلٌّ يوصي أهله بعدم التأخر ليلًا؛ لأن الأحداث في الكفر غير مطمئنة

في تلك الأيام، ويمر اليوم ويذهب الناس ليتناولوا الإفطار، وبعد الإفطار توجه الناس كعادتهم إلى دوار العمدة وهدان، ففتحوا الراديو لسماع الأخبار، فعلموا أن غدًا هو أول أيام العيد، فقاموا بتهنئة بعضهم، وخرج الدكتور شريف وأبوه وذهبا إلى وهدان لتهنئته بالعيد، متمنين أن تكون الأيام القادمة خيرًا وينزاح الكابوس الذي سيطر على الكفر، وفي الصباح توجه كل من بالكفر إلى المسجد لأداء صلاة العيد، وشارك أهل الكفر فرحتهم العارمة، وكأنها أول مرة يفرح فيها الكفر وتُرسم الابتسامة فوق الوجوه العابسة، ويحضر الحاج محمد والدكتور شريف، وأخذوا يهنئون بعضهم، ومكث شريف قليلًا ثم استأذن لأنه لا بد أن يذهب إلى مشفى المركز؛ لأنه قد ورده اتصالًا يطلب منه الحضور، فهناك حالة خطيرة ولا بد من وجوده لإجراء العملية اللازمة، فأصر الحاج محمد أن يذهب مع ابنه، ولكن شريفًا تعجب من إصرار أبيه، فقال له: "يا أبي، أنا لم أعد صغيرًا"، فيرد الأب: "ولكنك سوف تعود متأخرًا، والكفر ليلًا غير مضمون يا ولدي، وسوف أذهب معك لا نقاش ولا جدال". يتبسم شريف ويذهب الحاج محمد وشريف إلى مشفى المركز حتى ينهي شريف عمله ويحضر هو وأبوه إلى الكفر وقد أُذن لصلاة المغرب وهم قادمون إلى الكفر، فذهبا وصليا بالمسجد ثم انطلقوا إلى المنزل، وكان الكفر في فرح وسرور، وبعد أن تناول شريف العشاء مع أبيه وجلسوا معًا يتحدثون فيما حدث وأن الكفر اليوم قد دخله فرح العيد، تساءل شريف متى تزال الغمة وينكشف المجرم، فقال الحاج محمد: "قريبًا بأذن الله تُزال غمة الكفر"، وقد تذكر شريف شيئًا مهمًّا فاستأذن من أبيه؛ لأنه لا بد أن يذهب إلى أحد المنازل القريبة لأنهم طلبوه لإجراء

كشف على شخص هناك، فيقول له أبوه: "ولكن يا ولدي الوقت متأخر، وأنت تعرف ما يحدث من الفزع".

فيرد على أبيه:

"لا تخف، الحامي هو الله يا أبي"، ولكن قلب الأب لم يطاوعه أن يتركه يذهب وحده،

فيقول الأب: "لن أتركك تذهب وحدك أبدًا، سأذهب معك".

فيرد شريف: "ولكن يا أبي...".

الأب: "إني ذاهب معك".

فيبدلون ملابسهم ويذهبون، ولكن الأعين كانت تراقبهم، وتم الإبلاغ بأن الدكتور شريف ووالده خارجون ويسيرون في طريق الساقية القديمة، ثم اقتربوا من الساقية القديمة وخرج لهم الملثم وهو يقول:

"يا محمد يا جزار، حذرتك مرارًا وتكرارًا أن تسحب نفسك وتكف عن تدخلك بين وهدان وعنتر في عملية الصلح، هذا لم يحدث أبدًا".

فينظر شريف وهو يقول:

"اكشف عن نفسك وحدثنا ما دمت رجلًا وقويًّا، اظهر نفسك ولا تتخفى كالفئران في الجحور"، فينظر إليه وهو يقول: "محمدا يا جزار، حذر ابنك من كلامه؛ لأنه بذلك سيكون سببًا في أشياء أنت وأنا في غنى عنها".

وأعين الشرطة الراصدة تبلغ الدورية، فيقتربون ويلتفون حوله، فشعر الملثم بحركة غريبة فمضى هاربًا، وتحضر الشرطة وهم يسألون أين هرب، يرد الحاج محمد: "من هذا الطريق"، فيبدأ البحث، وكانت الناس قد حصدت محصول الذرة والأرض فارغة

قد تم ريها بالماء استعدادًا للحراث والمحصول القادم، ولكن الليل بظلامه يستر ما بداخل الحقول، وتبدأ المطاردة وتشعل الشرطة نيران لإنارة الحقول، ويتجمع أهل الكفر جميعًا، ولكن المجرم اختفى، فينظر الضابط إلى أسفل فيشاهد أثر أقدام، فيقول للناس:

"الجميع يقف مكانه لا يتحرك، والقوات تسير خلفي فقط"، فيبدأ في السير على الأقدام وهي على مسافات بعيدة، دليل على أن صاحب هذه الأقدام كان يجري ويقفز، فيسير مع الأقدام يمينًا ويسارًا حتى يدخل أرض وهدان، فيسير الضابط إلى مكان في الحقل اختفت الأقدام فيه، وهذا المكان غرفة مخصصة لماكينة الري التي تروي أرض وهدان، وكان سقفها من أكوام الذرة، وبابها خشب، فأمر الضابط بالالتفاف حول الغرفة ثم قام بكسر الباب، فلم يجد هناك شيئًا، الضابط باستغراب: "إن آثار الأقدام انتهت هنا، أين ذهب؟"، فيجلس على حوض المياه وهو يفكر أين ذهب، فآثار الأقدام اختفت في هذه الغرفة، ثم مد يده إلى الحوض ليلتقط الشعلة فلمس شيئًا غريبًا في الحوض، حلقة من حديد، فبدأ برفعها وساعده الجنود، فإذا بسلم لأسفل، فأمسك الشعلة ونزل والجنود معه، فإذا بنفق، واستغرب الناس إلى أين يؤدي ذلك النفق، والخطوات ما زالت تسير ولكن ببطء ،فسار بالسرداب، ولكن المسافة كانت قريبة، حتى خرج فوجد نفسه في منزل وهدان في حجرة بالدور الأرضي، فنظر يمينًا ويسارًا فشاهد أن هناك شخصًا يقف في زاوية مختفٍ بها، فأخرجته القوة وتم القبض عليه، وكان الفجر قد أشرق بضوئه والكل متأهب يريد أن يعرف من هذا القاتل، والكل خرج والفضول يأخذه ليعرف من هذا،

فيقترب الضابط ويزيل الغطاء عن رأسه ليكشف عن الوجه، فإذا بالصاعقة الكبرى والمفاجأة التي أصابت الكل بالذهول وكادت تفقد العقول، ووهدان ينظر وقد شد بصره، وهو يقول: "أنت يا أمي؟"، والناس تهمس (مريم) وقد سقط الخنجر منها فقام الضابط بإحضاره، ونظر وهدان إلى الخنجر وهو يقول: "هذا خنجر أبي، لماذا لم أفكر بهذا؟ وكيف ذلك؟ كيف ذلك، أنت يا أمي من فعل كل هذا؟ لماذا؟".

ترد مريم والحزن واضح عليها:

"كان لابد من قوة تحميك يا وهدان، وكان لا بد أن يخاف أهل الكفر، ويكون هناك فزع ورعب يخوفهم ويسكن قلوبهم".

فيرد وهدان متأثرًا:

"وما النتيجة التي حصلنا عليها؟ الجميع أصابه الخوف، وأصبحنا مكروهين ومبغوضين في أعين الناس، وأنت يا أمي أصبح مصيرك السجن، وربما الموت".

فيأمر الضابط بأخذ مريم ولكن وهدان يستسمحه أن تبدل ملابسها؛ لأن تلك الملابس قد لطخها الطين، فسمح لها الضابط مع حراسة مشددة، فيذهب الجميع إلى بيت العمدة، فتراها فاتن فتهجم عليها فتمسكها نجلاء وشريف وهي تقول لها: "أنت من قتل أبي؟ لماذا؟ وماذا فعل لك أبي؟".

مريم:

"أبوك يا فاتن كان يستحق الموت من زمن؛ لأنه ثعبان خائن يحتاج إلى قطع رأسه، كما حاول قتل وهدان واستأجر شخصًا فأطلق النار على وهدان أثناء روجعنا من بيت محمد الجزار عندما ذهبنا لخطبة نجلاء، فطلبت من زعتر معرفة الحقيقية فأخبرني بها،

وحضر بيومي، وعندما قابلته وأطلقت عليه الرصاصة وسألته من الذي أخبره أن قتل وهدان، أخبرني أنه علام، ومات بيومي عند الساقية القديمة، والمرة الثانية عندما حرق الأراضي والمحصول ووهدان يعرف ذلك، والمرة الثالثة عندما اتفق مع عنتر على التخلص من وهدان مقابل أن يكون العمدة ومحمد الجزار يعرف ذلك".

فينظر محمد الجزار وهو يقول:

"فعلًا يا فاتن هذه حقيقة".

مريم:

"كان لا بد أن يموت يا فاتن".

نجلاء الدموع تنهمر من عينيها وهي تنظر إلى مريم، فتقول لها مريم: لماذا تبكين يا نجلاء؟ أنا حاولت حماية وهدان بكل الطرق الصحيحة وغير الصحيحة".

فترد نجلاء:

"ولكن يا خالة، الدم وما ينتظرك يا خالة".

مريم: مهما حدث يا نجلاء هناك طلب سأطلبه منك".

نجلاء: "أمرك يا خالة".

مريم قائلة والحزن يسيطر عليها وكأنها لأول مرة تستسلم لأمر:

"يا نجلاء، حافظي على وهدان؛ لأن وهدان طيب وقلبه أبيض ولا يعرف المكر والخبث الموجود في قلوب الناس، دائمًا كوني عينه التي يرى بها ما لا تراه عيناه، وساعديه، وأنت يا محمد يا جزار كن مع وهدان لأنه سيكون وحيدًا، ولا بد أن يكون هناك من يدله ويوجهه، وأنت أفضل واحد، وأنت يا وهدان، لا بد أن تكون قويًا، ولا تنس كلامي يا ولدي"، ثم تذهب لتبديل ملابسها ويقف رجال

الشرطة على باب غرفتها، فتتأخر مريم ويشعر الجميع أنها تأخرت، فيأمر الضابط الجنود بالدخول، فيطلب منه وهدان أن يقوم هو بالدخول، فسمح له، فطرق وهدان الباب مرات متوالية فلم يجب أحد، فطرق الباب بقوة، وليس هناك نتيجة، فقام الجند بكسر الباب فلم يجدوا أحدًا بالغرفة، اختفت مريم وجميع النوافذ موصدة، ورجال الشرطة منتشرون في كل مكان حول المنزل وداخله، فذهل الجميع وأخذوا يتساءلون:

"أين اختفت مريم؟ وكيف اختفت؟".

وتظل الإجابة عن السؤالين مبهمة، وتراضى الجميع وأصبح وهدان العمدة، وشيخ البلد عنتر، وتم عقد صلح بينهم وانتهى النزاع، ولكن مريم ما زالت مختفية حتى الآن ولا نعرف أين ذهبت، هل هربت دون أن يراها أحد وماتت في مكان ما؟ لا ندري، أم نصدق ما يقوله الناس بأنها كانت تحضر الجن فأخذوها؟ وكثير من تلك الأقاويل، ولا نعرف ما أصابها، وستظل قصة مريم ووهدان حديث هذا الكفر لأجيال قادمة.

تمت

* * *

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج . م . ع

www.Idafabooks.com